قراءات تحليليّة لفضاءات شعريّة وروائيّة

صبري يوسف

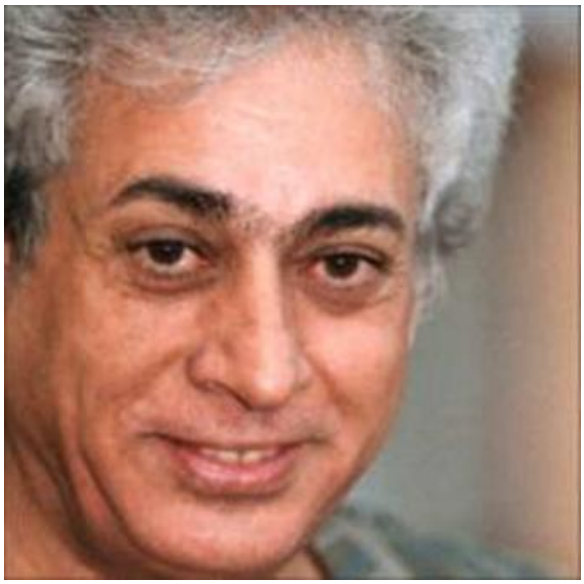

الرِّوائي والشَّاعر سليم بركات

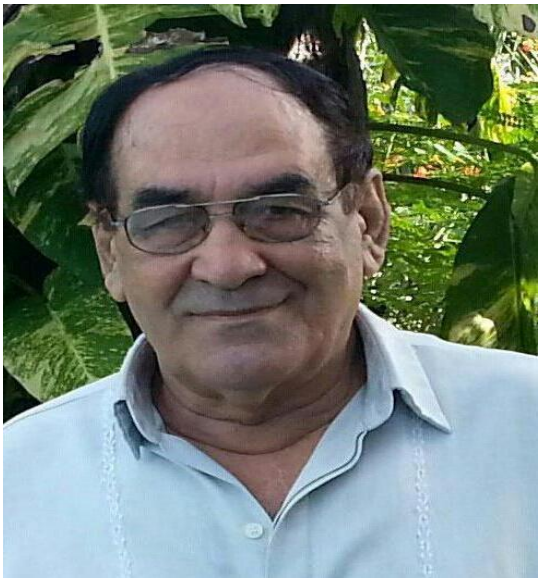

الشَّاعر صلاح فائق

الشّاعر أديب كمال الدِّين

الرِّوائي صموئيل شمعون

دار نشر صبري يوسف

2015

اسم المؤلِّف: صبري يوسف

عنوان الكتاب: قراءات تحليليّة لفضاءات شعريّة وروائيّة

دراسة

الطَّبعة الأولى: ستوكهولم 2015

الإخراج، التَّنضيد الإلكتروني، الغلاف والرُّسوم الدَّاخليّة (المؤلِّف)

حقوق الطَّبع والنَّشر محفوظة للمؤلِّف

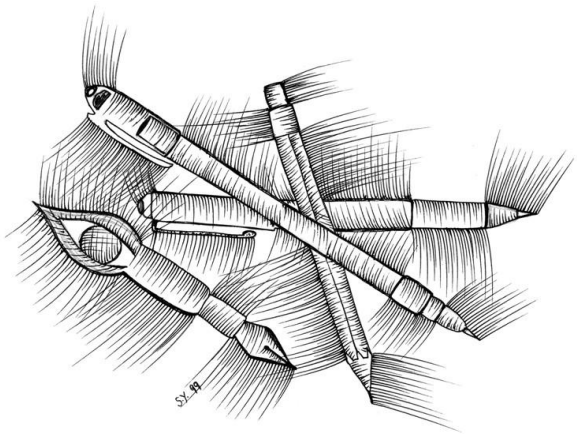

دار نشر صبري يوسف

sabriyousef56@hotmail.com

FB: Sabri Yousef

(محرر مجلة السلام)

صدر للأديب التَّشكيلي

1 . "احتراق حافّات الرُّوح" مجموعة قصصيّة، ستوكهولم 1997

2 . "روحي شراعٌ مسافر"، شعر، بالعربيّة والسُّويديّة . ستوكهولم..... 1998
(ترجمة الكاتب نفسه).

3 . "حصار الأطفال .. قباحات آخر زمان!" . شعر . ستوكهولم 1999

4 . "ذاكرتي مفروشة بالبكاء" . قصائد . ستوكهولم 2000

5 . "السَّلام أعمق من البحار" . شعر . ستوكهولم 2000

6 . "طقوس فرحي"، قصائد . بالعربيّة والسُّويديّة . ستوكهولم 2000
(ترجمة الكاتب نفسه).

7 . "الإنسان . الأرض، جنون الصَّولجان"، شعر . ستوكهولم 2000

8 . مائة لوحة تشكيليّة ومائة قصيدة، تشكيل وشعر/ستوكهولم 2012

9 . أنشودة الحياة . الجّزء الأوَّل، نصّ مفتوح . ستوكهولم 2012

10 . ترتيلة الرَّحيل . مجموعة قصصيّة، ستوكهولم 2012

11 . شهادة في الإشراقة الشِّعريّة، التَّرجمة، مقوّمات النّهوض بتوزيع
.....الكتاب وسيكولوجيا الأدب . ستوكهولم 2012

12. أنشودة الحياة . الجّزء الثَّاني، نصّ مفتوح . ستوكهولم 2012

13. أنشودة الحياة . الجّزء الثَّالث، نصّ مفتوح . ستوكهولم 2012

14 . حوار د. ليساندرو مع صبري يوسف . 1 . ستوكهولم 2012

15 . ديريك يا شهقةَ الرُّوح . نصوص أدبيّة، ستوكهولم 2012

16 . حوارات مع صبري يوسف حول تجربته الأدبيّة والفنّيَّة . 2 .
..... ستوكهولم 2012
17 . حوارات مع صبري يوسف حول تجربته الأدبيّة والفنّية . 3 .
..... ستوكهولم 2012
18 . مقالات أدبيّة سياسيّة اجتماعيّة . 1 . ستوكهولم 2012
19 . مقالات أدبيّة سياسيّة اجتماعيّة . 2 . ستوكهولم 2012
20 . رحلة فسيحة في رحاب بناء القصيدة عند الشَّاعر .....
الأب يوسف سعيد ..... ستوكهولم . 2012
21 . أنشودة الحياة . الجُّزء الرَّابع، نصّ مفتوح، ستوكهولم 2012
22 . أنشودة الحياة . الجّزء الخامس، نصّ مفتوح، ستوكهولم 2012
23 . أنشودة الحياة . الجّزء السَّادس، نصّ مفتوح، ستوكهولم 2012
24 . أنشودة الحياة . الجزء السَّابع، نصّ مفتوح، ستوكهولم 2012
25 . أنشودة الحياة . الجّزء الثَّامن، نصّ مفتوح، ستوكهولم 2012
26 . أنشودة الحياة . الجّزء التَّاسع، نصّ مفتوح، ستوكهولم 2012
27. أنشودة الحياة . الجّزء العاشر، نص مفتوح، ستوكهولم 2012
28 . إستلهام نصوص من وحي لوحات تشكيليّة، ستوكهولم 2014
29. حوار مع التَّشكيل اللَّوني، ستوكهولم 2014
30. عناق روحي جامح، قصص قصيرة، ستوكهولم 2014
31. حوار حول السَّلام العالمي، ستوكهولم 2015
32. قراءات تحليليّة لفضاءات شعريّة وروائيّة 2015

الإهداء:

إلى الرّباعي البديع

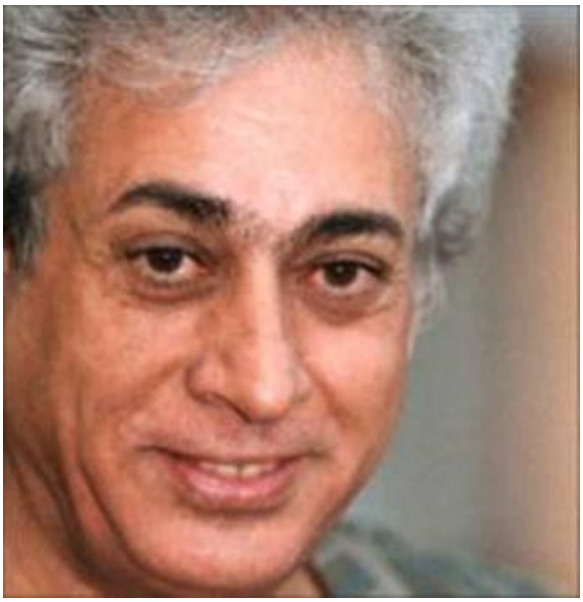

الرِّوائي والشَّاعر سليم بركات

الشَّاعر صلاح فائق

الشّاعر أديب كمال الدِّين

الرِّوائي صموئيل شمعون

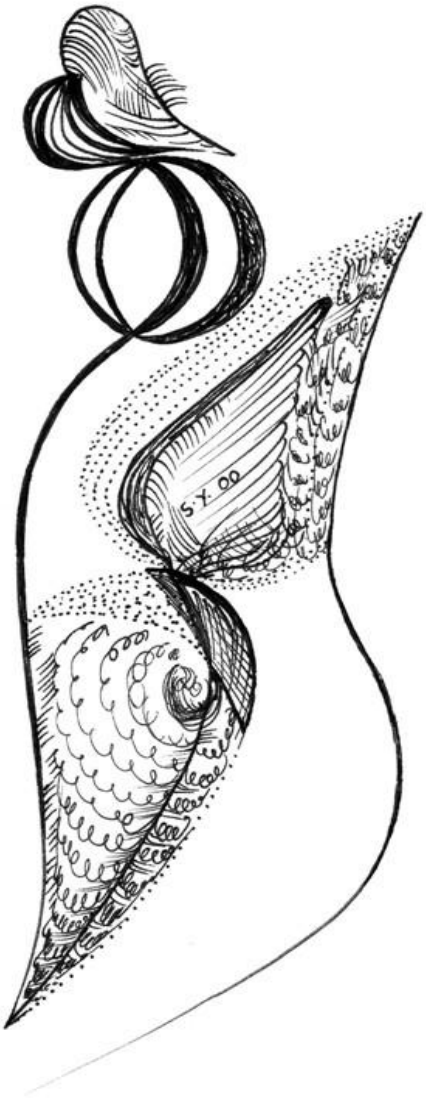
S.Y.00

الأديب الرِّوائي سليم بركات لغةٌ معجونة برحيقِ الحياة

لإسمكَ وقعٌ خاص على جبهةِ الذَّاكرة، منذ أن قرأتُ لكَ سيرةَ الطُّفولة وسيرةَ الصِّبا، وأنا أتساءل كيف يرسم هذا الأديب الكرديّ المشاكس الشَّفيف إيقاعات حرفه؟

كيف تقتنص هذه العوالم والفضاءات البهيجة في العبور إلى أعمق ما في اللُّغة من بهاءٍ وفضاءٍ وسردٍ مطلسمٍ بنداوةِ النَّفلِ والعشبِ البرِّي؟

هل كنتَ تلملمُ النَّفلَ وأنت صغير من براري عامودة، وسهول القامشلي، أم أنَّكَ كنتَ تائهاً مع عوالم الحرف تبحث عن خيوط رعشة الكلمة كي تعيدَ توازناتِ الرُّوح إلى إيقاعها الدَّافئ؟

كيف تستلهمُ عوالم رواياتكَ المضمّخة بألقِ بوحِ الملاحمِ والأساطير، مجسِّداً شخصيَّاتها بطريقةٍ مدهشةٍ، عبر كثافةٍ لغويّة عاجّة بالغموض والغرابة والتأمُّل والخيال المبهر، كأنّكَ على تواصلٍ مع فريقٍ كبير من فقهاء اللُّغات، وعلماء النَّبات والطُّيور والكائنات البرّيّة والأهليّة؟!

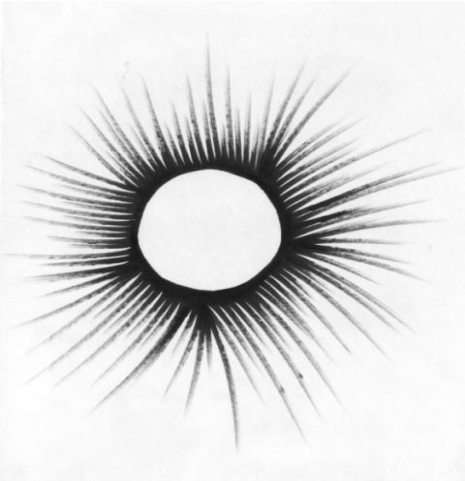

لغةٌ وحشيّةٌ صلدة تدلقُها في فضاءاتِ رواياتكَ وأشعاركَ وكتاباتكَ، كأنَّكَ تستنبتها من أدغالِ الأزمنةِ الغابرةِ وتؤنسها للقارئ بطريقةٍ طيّعة، عابقةٍ بأصالةٍ عريقةٍ وبنكهةِ القرنفل والزّنبق البرّي، رغم تشظّياتها الجَّانحة نحو الغموض والطَّلاسم في تراكيب صيغتها البنائيّة في بعض الأحيان، حيث يتوه القارئ في استكناه مضامين رؤاك الضَّالعة في خلق لغة غير مطروقة لدى كتَّاب الضَّاد بهذه الطَّريقة الباذخة في التَّقنيات اللُّغوية والصُّور غير المعهودة، كأنَّكَ في سباقٍ مع ذاتك ومع مخيالك المفتوح على عبور المزيد من مساحات شهقة اللَّيل بأحلامه الفسيحة!

لم أقرأ لكَ روايةً أو نصّاً شعريَّاً إلا وقفتُ مذهولاً بهذه اللُّغة السَّليميّة السَّليمة الغائصة أحياناً بطلاسم لا يفكّ الكثير من منعرجاتها أحياناً إلا أحفاد الجُّنّ، ثمَّ أعود وأقرأ النَّصّ ثانيةً وإذ بقهقهاتِ أولادِ الجنّ تتناهى إلى مسامعي فأضحكُ في عبّي لأنّني أجدني أفكّ شيفراتكَ المعبّقة بأرجوحةِ اللَّيلِ الطَّويلِ، لأنّ لديَّ تواصل بصيغةٍ ما مع عوالم الجنّ الَّتي تتعانق مع عوالمكَ الخفيّة، المترجرجة فوق ينابيع الذَّاكرة البعيدة الغافية بين موجاتِ إشراقةِ الحلم.

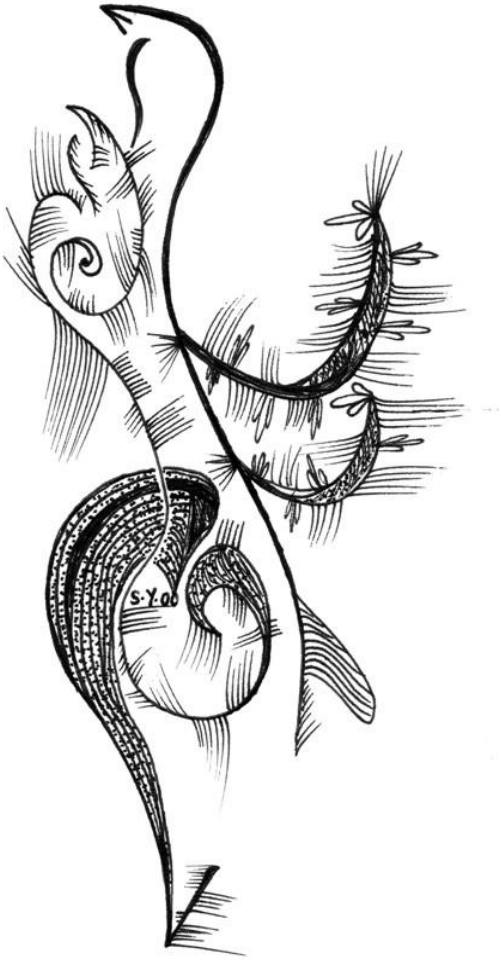

تعال يا صديقي كي أبوحَ لكَ بحميميّةٍ دافئة بعضاً من عوالم طقوسي في مرحلة ما قبل الكتابة، كي أسألكَ بعدها فيما إذا تتقاطع شذرات من عوالم طقوسكَ مع هذه العوالم. عندما أجدني غارقاً في القراءة والتأمّل العميق، أجدني أنهض فجأةً متوجّهاً إلى ركنٍ من أركانِ غربتي، حيث "جمبشي وعودي" ينتظرانني بفارغ العشق، فأمسكُ عودي كي أداعب شهقة ليلي وإذ بي أتوهّج فرحيّاً وشوقيّاً إلى عوالم ما خلف البحار وإيقاعات الموسيقى المنبعثة من تلألؤات النُّجوم، تتراقص أصابعي الرَّفيعة وأنا أعزف أغاني الفنَّان الرَّاحل المبدع محمَّد شيخو، وعندما أزداد طرباً مع ذاتي تتفتّح شهيَّتي وحنجرتي على أغاني لها نكهة النَّارنج، فأغنِّي بمتعةٍ غريبةٍ ولذيذةٍ " آخْ كَورهْ آخْ كَورهْ كَورامِنْ"*.

هذه الأغنية وأغاني "شيخويّة" أخرى تبهج قلبي وروحي وتفتح ذاكرتي على عوالم الإخضرار، هل تستمدّ طقوسكَ في الكتابة من عوالم وفضاءات طقوس الأغنية الكرديّة المزركشة بأغاني في غاية النَّفَس الملحمي، إبتداءً من "سِتْيَا زِيْن ومَمّي آلا"، مروراً بـ "شَمْدِيْن وحَمْدين" ومواويل "غزال غزال هائي هائي، وباقي فخري صواري كِينْجُوْ .."؟!**

أغاني تفتح خيال الرِّوائي كي يحلّق في معابر أسطوريّة من لونِ الفرح!

تدهشني طريقة سردكَ، لغتك الشِّعريّة تتداخل في متون رواياتكَ، فتغدو لغةً عصيّةً عن العبورِ، لكنَّك تترك مفاتيحكَ السّحريّة متناثرةً في عوالم النّصّ الشَّفيف، كي يعبر المتلقِّي وهو غارق في بهجةِ الاشتعال، اِشتعال خصوبة الكلمة، هذه الكلمة الَّتي تلتقطها من أفواه النَّسيم العليل تارةً، ومن أفواهِ شهقةِ النَّيازكِ تارةً أخرى.

كيفَ تكتبُ عوالم رواياتكَ، من أين لكَ بهذه اللُّغة السَّاحرة، والتَّراكيب المبهرة الَّتي نادراً ما أجد مثيلاً لها في عالم الحرف العربي، أنتَ الكردي المتغلغل في رحابِ الحرفِ العربي ببهجةٍ عميقةٍ، الملتصق في أدب الخصوبة، خصوبة الحرف وتجديد إيقاع لغة العصر، حداثة مترشرشة بنكهة العنب وتين الشِّمال، مع أنّكَ عبرْتَ التِّلالَ ومنعرجاتِ الغربة وأنتَ في باكورة عمركَ، فكانت دمشق ثمَّ بيروت وبعدها قبرص ثمّ استوكهولم، محطّات بحثٍ عن لغزِ الحياة، لغز حروف مندلقة من مرتفعات جبل جودي وبحيرة "وَانْ" حيث تسطع هناك أعشاب الرُّوح منذُ فجرِ التَّكوين؟!

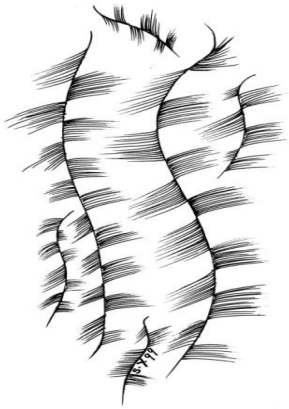

عينان صخريَّتان مسربلتان بجموح انطلاقةِ شموخِ الغزلان، تمعن النَّظر في طيش الحياة، فتلتقط رذاذات طريّة لِمَا فات ولِمَا تبقّى من العمر، هذا العمر الَّذي تطحنه جاروشات مجنونة في هذا الزَّمن الأحمق.

كيف تستطيع أن تتحمّل خشونة الجَّواريش المتهاطلة على شواطئ الرُّوح وأنتَ متطاير من دكنةِ اللَّيلِ في ليلةٍ قمراء، تائهاً في دهاليزَ غرباتٍ لا تخطر على بال، هل إستطعْتَ عبر نداوات الحرف أن تعيدَ إلى صخب الرُّوح توازنها أم أنّكَ تجد نفسكَ متأرْجحاً حتَّى في أعماق الحلم فوق شهقة البحار وأمواج ضجر المسافات؟

تطاوعكَ مفردات الحياة وكأنّها صديقة أهدابكَ المرتعشة من خشونةِ الرِّيح، كيف تنتقي هذه السِّياقات اللُّغوية وأنتَ غائص في لجّة الأحداث، أحداث روائيّة شاردة عن صحارى العمر. تلملم خيوطكَ وتبري قلمكَ إلى أن يصبح حادّاً وكأنّه ساطور متناغم مع موسيقى حوافر الأحصنة وهي تعبر جبال متعرّشة فوق سفوحها أغصان شجيرات التُّفّاح؟

كم مرّة عانقكَ محمود درويش وهو يبتسم لمحيَّاكَ الرِّيفي الصَّاخب عشقاً وجموحاً وأنتَ مذهول بهذا الفرح المتهاطل من عيون درويش، فتقدح عيناك بهجةً وعناقاً معَ قومٍ ترشرشَتْ حياتهم بالدَّم منذ أن فتحوا عيونهم على الحياة إلى الآن؟ بسمةٌ يانعة تزرعها على هلالات وميض عينيّ درويش وهو يقرأ بمتعةٍ منعشةٍ قهقهات روحكَ المنبعثة من شموخِ عوالم القصِّ المدبّقِ بعبقِ القصائد؟

سليم بركات، إسمٌ على مسمّى، مُعافى من جنونِ العصرِ، ومزنّرٌ بالبَرَكاتِ، مَن منحكَ كلّ هذه البَرَكات، هل تنحدر من سلالةٍ بركاتيّة أم أنَّ هذه البركات جاءت بكلِّ عفويَّتها متناغمة مع بركات الحرف الَّذي تدلقه على خدودِ الصَّباح؟!

إتّصلتُ يوماً معكَ فيما كنتُ غائصاً في غربة هذا الزَّمان، راغباً أن ألتقيكَ برفقة الأب الشَّاعر يوسف سعيد، لكنّك كنتَ غارقاً حتَّى أذنيك في ترتيبات الإنتقال إلى موجات جديدة من رجرجاتِ العمر، آنذاك كنتَ قد حصلْتَ على مساحةٍ من الهدوءِ على أرضِ ممكلةِ السّويد، محاولاً أن تفرش نصوصكَ ورواياتكَ وأشعارك على تلالِ الحياةِ، مكالمة قصيرة، قصيرة للغاية.

كنتُ أنوي يا صديقي أن أقدّمَ لك كأساً من العرق لعلِّي أخفّف من أوجاعِ الغربة، غربةِ البحار وغربة الإنسان مع أخيه الإنسان، لكنَّكَ كنتَ على وشك الإشتعال، إشتعال بيادر إستراحاتِ الإنتقالِ، فأجّلنا اللِّقاء إلى أجلٍ غير مسمّى، لم نلتقِ لكنَّنا على الأرجح سنلتقي .. دارت الأيام وإلتقينا عبر انبعاثِ حوارٍ حولَ جموحاتِ السَّردِ ووهجِ الشِّعرِ في "الغرفة الكونيّة"، في معالمِ جهة الشِّعر، جهة ولا أبهى، جهة متعانقة مع خيوط الشَّمس عبر الأثيرِ، فلم أجد في حينها أعذب من عناق الحرف كمدخلٍ لأن نرفع عبره نخب الشِّعر وجموح الرُّوح على إيقاعات إندلاع وهج رواياتِ وأشعارِ سليم بركات! ..

سردُكَ مبهرٌ للغاية، .. تشمخُ عوالمُ روايتكَ "كهوفِ هايدراهوداس" عالياً، تلامسُ مروج الأساطير، تفتح لنا بوّابات العبور إلى أعماقِ الكهوفِ بلغةٍ ساحرة، معجونة بإشراقاتِ خيالٍ مبلَّلٍ بخبايا أسرار الأساطير، تصنعُ سرداً من شهقة غيمة معتّقة بأحلامٍ غابرة، مُسَربِلاً كائناتكَ بأشهى ما في مرامي الحياة من دهشةٍ وبهجةٍ في عبورِ أغوارِ عتمةِ الدَّهاليز، كأنّكَ في حالةِ إنشادٍ منعبثٍ من فراديسَ الأحلامِ، ومن هدير البرقِ، عابراً متونَ الحرفِ بألغازٍ مكتنزةٍ بالطَّلاسمِ والتِّيهِ عن مساراتِ السُّؤال، عبر خيطٍ متشظٍّ إلى منعطفاتٍ مندلقةٍ من أقصى براري الخيال!

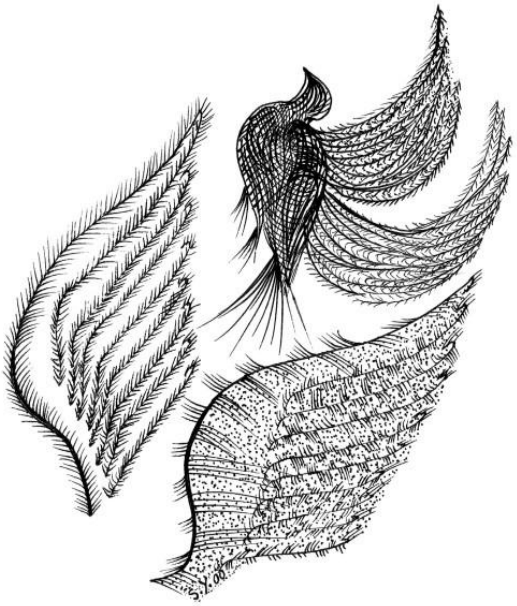

كيفَ تلملمُ هذه الحكايات، في إيقاعِ سردٍ يفوقُ تدفُّقاتِ شهوةِ المطر، روحٌ معرّشة بخصوبةِ الشِّمال في صباحِ الأربعاء، صباحاتُكَ ربيعٌ مندَّى بحنينِ الحصَّادين وشوقهم العميق إلى حصادِ باقاتِ السَّنابل؟!

ماهذه الفراسخ المدهشة الَّتي تفتحها وتفرشها أمامنا على طبقٍ من يراعِ الإبداعِ الرَّصين، من خلال رواية "دلشاد، فراسخ الخلود المهجورة"؟!

نوغلُ في مساحاتٍ فسيحة وباهرة عبر رحلةٍ في عرينِ الأدغالِ، حيث الكهوف المكتنفة بالأسرارِ في إنتظار العبور إلى دهاليزها العابقة ببخور الأزمنة العتيقة.

تنحُتُ حرفَكَ فوق وجنةِ هذا الّزمن والأزمنة الآتية، لغة معتّقة بجمرة الحنين إلى أعذب ما في تدفُّقات الخيال، تفرش أمامنا أهازيجك ورؤاك وأحلامك المعشَّشة في عامودة والقامشلي وسهول ديريك، مركّزاً على قمّة جبال "بِيْخِيْر" الَّتي تناجي نجوم اللَّيل في مساءات الصَّيف، لغةٌ قزحيّة متلألئة بموشور مذهَّب بأحلام دلشاد، وصلابة الكورد وهم يتوغَّلون في أعماقِ الكهوفِ، يفككّون طلاسم العبور في تجاويف اللِّيل، موجّهين أنظارهم نحو خبايا الكهوف المحصّنة في أعالي الجِّبال. دلشاد، تدفُّقٌ على إيقاعِ هفهفاتِ المطر، رحلةٌ مفعمة بالطَّلاسم والولوج في تكويرةِ الأسرارِ المنقوشة فوق جلدِ الغزال!

يغوص الرُّوائـي عميقاً فـي الانتقـاد، فمـن المعلـوم أن يكـون الفقهـاء فقهـاء التَّنوير، إلَّا أنَّ بركات يراهم يسيرون في دكنة اللَّيل، لهذا أطلقَ على إحدى رواياتـه عنـوان: "فقهـاء الظَّـلام"، وكأنّـه يريـد أن يقـول لنـا، رؤاهـم مظلمـة للغاية، بلغةٍ محبوكة وسردٍ ثريّ في بناء عوالم الرِّواية، حيث نتلمَّس لغةً متدفّقـة بحفـاوة أسـطوريّة فـي كيفيـة سـبكها وبنائهـا وربطهـا فـي حيثيـات الحكايات الَّتي تتوالد في أجواءٍ مدهشة، لغةٌ ساحرة، بمضامينها، بتراكيبها، يخلق جوَّاً فريداً، يتخلَّله رؤية تنويريّة، من خلال تجسيد شخصيّة محوريّة بإسم "بيكَس" والَّتي تعني لُغوياً: لا أحد لديه، لا أهل لديه!

يتطرَّق الرِّوائي المبدع سليم بركات عبر روايته "فقهاء الظَّلام" إلى تجسيد أنين الكورد وأنين الإنسان، بأسلوبٍ عميق ولغةٍ مجبولة بآهاتِ السِّنين، فارشاً فضاءات روايته في ربوع القامشلي وبراريها، مركّزاً مهاميزه على الكثير من الأغلاط والعذابات الّتي تتفاقم يوماً بعد يوم في الذَّاكرة والحياة الَّتي يعيش فيها أهل الشِّمال، متسائلاً متى سيحلُّ السّلام والأمان في هذه الرّقعة العابقة بالحميميِّة، المحفوفة بذاكرة معتّقة بالحنين إلى رائحة الكروم والسَّنابل والبيادر الَّتي أغدقَتْ علينا خبزَ التنّور المقمَّر!

يعود بركات استكمالاً لرواية: "كهوفِ هايدراهوداس"، يكتب لنا روايةً بأبعادٍ ملحميّة رحبة، متشرّبة بكهوفِ هذه العوالم بعنوان: "حوافر مهشَّمة في هايدراهوداهوس"، تحملُ بين طيّاتها غرائبيّة بديعة في تقنيات السَّرد، عبر حكايات جسّدها بطريقةٍ أسطوريّة، حيث يمنح عبر روايته طاقات بشريّة وطاقات حيوانيّة لشخصياته الَّتي يبتكرها بأسلوب مدهش، ومختلف عمّا تطرّقت إليه ملاحم أخرى، ويُسقِطُ على ملاحمه رؤاه وأفكاره وتطلُّعاته بطريقةٍ شيّقةٍ، وبلغةٍ خارجة عن المألوف العربي، وكأنَّه متخصَّص بإبداع لغة تتجاوز اللُّغة العربيّة في بنائها الفنِّي والسَّردي والإبداعي!

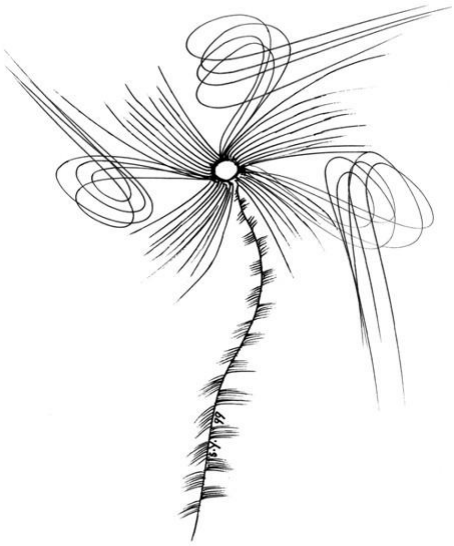

يتميَّز المبدع سليم بركات بلغة مكثّفة، عميقة، غنيّة بالمفردات واصطلاح الصّياغات الجَّديدة، وكأنّنا إزاء عاصفة لغويّة هائجة بشهوة سبور أعماق ما في اللُّغة من طاقات كامنة في مخيال المبدعين، لغّة متعانقة في أجواء سرياليّة، رمزيّة، تجريديّة، تحمل بين جوانحها انبعاثات ملحميّة، وملطسمة

في الكثير من فضاءاتها بتدفُّقات خيالٍ شعري في إيقاعٍ سردي غريب ومدهش، لغة عاجّة بالألغاز والأحلام الوارفة، يبحر عميقاً في اقتناص هواجسه المنسابة على نصاعة الورق، وكأنّه حالة حلميّة لغويّة متدفِّقة من تضاريس معرّشة في جموحاتِ الخيال، حيث نراه يغوص عميقاً وينبش من خصوبةِ براري الخيال أشهى ما في مذاقِ اللُّغة من شهقةِ الإندهاش، لينقش عبر قوافل مهاميزه السَّابرة في دهاليز لا تخطر على بال، لغةً مخضّبة بأكسير الحياة فوقَ عوالم أرضٍ بكرٍ، فيتلقّفها القارئ بمتعةٍ غريبةٍ ولذيذةٍ، فاتحاً محجريه بذهولٍ وإندهاشٍ كبير!

***

تقطرُ نصوص وقصائد سليم بركات بطاقاتٍ فنّيّة خلَّاقة، حيث نراهُ يتألَّق في بنائه الشِّعري، مثلما يتألَّق في ملاحمه الرِّوائيّة الشّامخة شموخ الجِّبال، أديب بديع تَرَهْبَن لشهوةِ الحرف والنَّصِّ والقصِّ والسَّرد، موغلاً في تقنياته اللُّغويّة المذهلة نحوَ المرافئ الصَّافية، يعجن حرفه بمذاقات باهرة، ويحلِّق عالياً نحو بحبوحة الشِّعر، مغترفاً من مخياله المفتوح على رؤى إنسانيّة رصينة راقية في خلق عوالم شِّعريّة خصبة، معشوشبة بلغةٍ مجنّحة نحوَ صفوةِ الشِّعرِ الزَّلال.

منحَ الأديب المبدع سليم بركات للشعر مذاقاً شهيّاً طازجاً، وبُعداً شامخاً في بوح تدفُّقات الخيال، بأسلوب شاعرٍ خلَّاق في بناء أجنحةٍ جديدةٍ للغةٍ تطير على شساعة التَّاريخ، ملامساً كهوفَ الجنِّ، كأنّه يستمدُّ جموحاته الشِّعريّة من ملاحم شعريّة متشرّبة في كيانه منذ آلاف السِّنين حتَّى الوقتِ الرَّاهن.

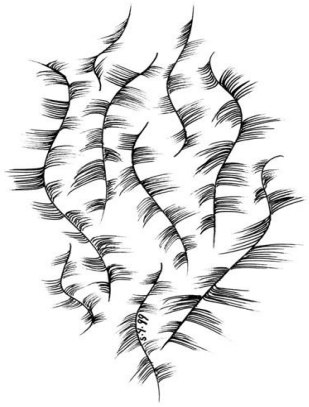

توقَّفتُ طويلاً عند شعره الأخّاذ، الفريد، المكتنف بالأحاجي الشِّعريّة والمكتنز بالطِّلاسم والرّموز والصُّور السُّورياليّة، يصيغ نصَّه بغرائبيّة باذخة عبر تدفُّقات شهقات الخيال، يلتقطُ صوره الشِّعريّة بطريقةٍ تفوق جموحات الخيال وغير قابلة للفهم في بعض الأحيان. يحوّل الخيال إلى واقع عبر لغة متمرِّدة تحمل بين تجاعيدها الكثير من الأحلام الغابرة، كأنّه في رحلةٍ خياليّة نحو عالمٍ غير مرئي، وكانّه يريد أن يستعيد أمانيه وتطلُّعاته وآفاقه المبدَّدة عبر اللُّغة، انقاذاً لرغبات مقموعة خلال مراحل انكسارات عمره عبر محطّاته المتشظِّية من بؤرة اشتعالات المكان، فتتَّقل من مكان إلى آخر، بحثاً عن قلمٍ يغلّفه قليلاً من الهدوء، كي ينقش لنا أحلامه الشِّعريّة الهادرة كالبركان!

سليم بركات وشمٌ مبهر في اخضرارِ مروج القصيدة العربيّة، حالة شعريّة عجائبيّة، لغةً، بناءً، سرداً، وجموحاً في الخيال. يكتبُ شعره بشراهةٍ مطريّة معتّقة بحنين الرُّوح إلى اكتشاف خفايا أسرار الدَّهاليز.

يتداخل نصّه الشِّعري مع عوالم سرده البديع، فيشكِّلا حديقة مكتنفة بأشجارٍ باسقة، متداخلة فيما بينها، تمرح في حدائقه أغرب الكائنات والأعشاب والطُّيور من كافّة العصور، مجسِّداً لنا أدباً صافياً يعكس سيرورة شاعرٍ وروائيٍّ معجونٍ من شهقةِ إنسانٍ، يستأنسُ مؤانسةَ الإنسان، لهذا نراه ينظر أبعد ممّا يتيح له المداد من فسحةِ التَّأمُّلِ، فيبني عبر خياله ممالك الإنسان المنهارة، ومن خلال هذه الرُّؤية يبدو وكأنَّه غير راضٍ لواقع الحال حاله وحال إنسان هذا الزّمان، لهذا يصنع لنفسه عالماً خياليَّاً بديعاً، بعيداً عن تصدُّعات ما يراه من خرابٍ في تطلُّعاتِ ما يمورُ في أعماقِ إنسان هذا الزَّمان!

ستوكهولم: تشرين الثاني (نوفمبر) 2013

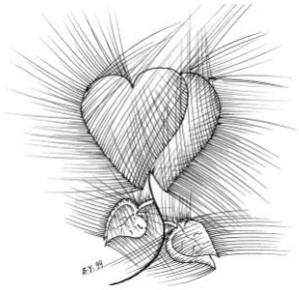

ديوان صلاح فائق دببة في مأتم
تأمُّل شعري ورؤى حلميّة

الشّعراء باقات حنطة، حكمةُ صعودٍ إلى قمم الجّبال، أصدقاء من بهاء ربيع دائم الإخضرار. تبعثروا على وجه الدّنيا كطيور الجنّة، يغيبون طويلاً، ثمّ يعودون إلينا، محمّلين بحفاوةِ الشّعر عبر نقاوة الأثير.

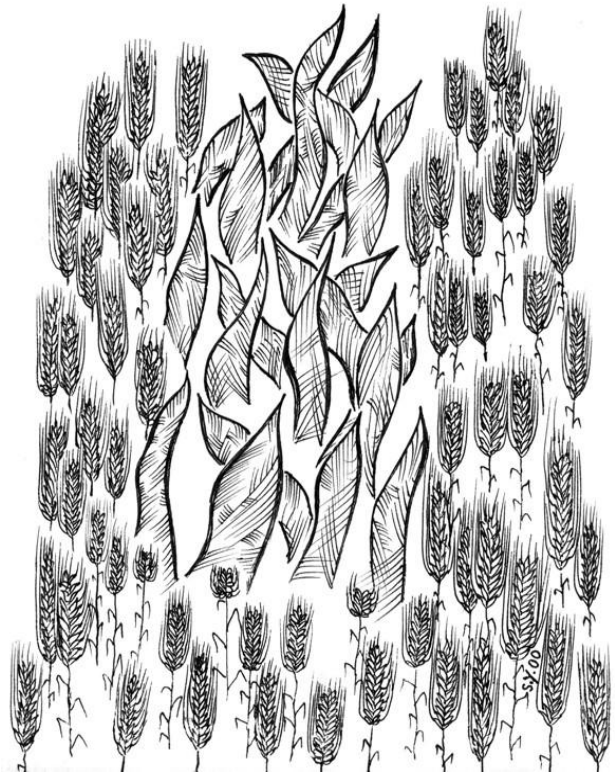

قرأت ديوان دببة في مأتم ، للشّاعر صلاح فائق، الَّذي صدر مؤخّراً عن طريق منشورات الجَّمل، وقد وصلني عبر البريد الإلكتروني، كأنّه هديّة متهاطلة عليّ من مآقي غيمة طافحة ببهجة العطاء.

استمتعتُ استمتاعاً عميقاً بقراءة ديوان دببة في مأتم، ولم أجد دببة في مأتم، بقدر ما وجدت كرنفالاً شعريّاً شامخاً نحو عرين الشّعر، نحو روح الشّعر، نحو ألق الشّعر، نحو وهج الشّعر. هذا الوهج الّذي هجر الكثيرين ممَّن يكتبونه في الآونة الأخيرة وبعض الدّببة الفضوليين مذهولين أثناء قراءتهم ومتابعتهم لهكذا تجلّيات شعريّة باذخة، كتبها شاعر متألّق في رحاب المآدب والأفراح والسّفر عبر وهاد اليابسة وأمواج البحار، وعبر غربة مفتوحة على رحاب الرّوح، متأمّلاً تأمّلاً عميقاً خلال غفوة اللّيل الطّويل.

***

يكتب الشّاعر صلاح فائق نصّه الشّعري، كأنّه في حالة تأمّل عميق يجنح عبر رؤى حلميّة نحو أسلافه السّومريين، فيشعر بأنينٍ عميق لما حملوه الأسلاف من خصوبة في صميم أرض العراق القديم، وما زرعوه من بذور إبداعيّة راقية في تراب العراق، فيرى أوطانه تزداد انشراخاً، وتتحوّل إلى تناحرات عقيمة، محفوفة بالإنزلاقات نحو أعماق هاويات الجّحيم، كما حصل ويحصل في العراق الآن، في عراقه المعرّش فوق حضارة الحضارات. ينظر إليها من خلال تدفّقاته الشّعريّة وتأمّلاته البديعة، فيذرف دمعة لما كان بين أجنحة العراق القديم في أوج ألقه وشموخه، ولما آلت إليه كركبات وسخافات هذا الزّمن الأحمق، فلا يرى شاعرنا خلاصاً لما يعاني منه الوطن والمواطن من إحباطٍ مشين، إلا وهج الشّعر، كي يفرّغ تدفّقات يراعه فوق مروج الشّعر ووهاده وسهوبه ومرافئه الفسيحة.

يرى الشّاعر أنّ زمننا معفّر بروث البقر وتكلّس الفكر، وملوّث بالجّنوح نحو قشور الحياة، زمن ترك جمال الحياة، وجمال الطّبيعة وجمال الإبداع في قعر الحياة. زمن من بكاء، زمن من أشره شراهات الدّهاء، زمن مفخّخ بسماكات الدّم وسماكات المخّ والمخيخ، زمن في طريقه إلى الإنزلاق نحو شفير الجّحيم، زمن مريض، مصاب بعقم مفتوح، زمن مهرول نحو ترّهات الحياة، زمن ولا كلّ الأزمنة ولكن الشّاعر صلاح فائق وكلّ من له قامة باسقة على إيقاع قامة فائق، ما يزالوا ينظرون إلى الحياة نظرة أمل، نظرة عطاء، نظرة إبداع، نظرة حبّ، نظرة حضارة، نظرة شعر محفوف بهديل الحمام في صباحات نيسان، وينسجون على إيقاع قيثارتهم السّومريّة، عودة العنقاء وصعودها من أعماق الرّماد.

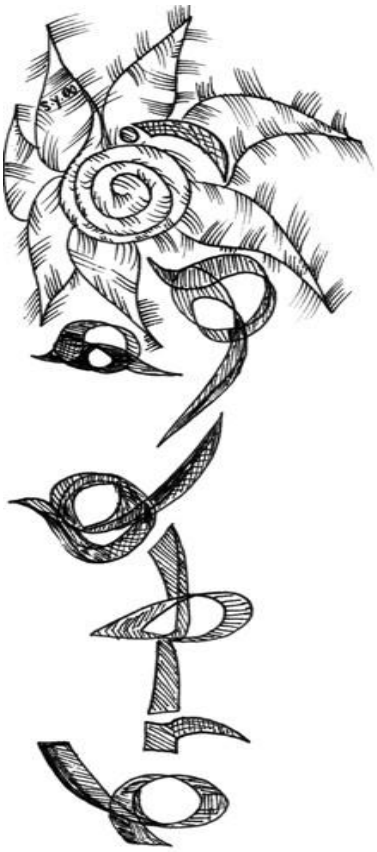

وحدهم الشّعراء يتوغّلون في أعماق جراح غربة الإنسان مع أخيه الإنسان، ويفرشون روعة تجلّياتهم ومآربهم ونضارة روحهم على وجه الدّنيا، وحدهم الشّعراء يرون ما وراء الأحزان الّتي تفاقمت فوق صدور الأوطان، ويحفرون قصائدهم بمشاعر خلّاقة فوق شهقة الحياة، لعلّهم يبلسمون الجّراحات الّتي تفاقمتْ يوما بعد يوم فوق مآقي الطّفولة والشّباب والكهولة وشيوخ على مشارف وداع الكون.

عجباً أرى أوطاناً تصبّ في قاع الزّنازين، أرى أوطاناً مصلوبة من خاصراتها من قبل حماتها، ومصلّيها، وسياسييها. أوطان قابعة في مهبّ الجُّنون، وأخرى تجاوزت شفير الجّنون.

مَنْ يستطيع أن ينقذ رقاب الأوطان من أهوال الجّحيم الّتي آلتْ إليها تقعّرات الرّؤى، الّتي تصبّ في ظلمةٍ ظالمة، غير حكماء وشعراء ومفكّري ومبدعي هذا العالم؟

أين أنتم يا منقذي رقاب الأوطان من الجّحيم الّذي نراه يتفاقم فوق جماجم الأوطان يوما بعد يوم؟!

فشلٌ ذريع في قيادة الأوطان إلى واحات السّلام، إلى مرافئ الأمان! خروجٌ تام عن جادة الصّواب، وعبورٌ مخيف في أقصى أقاصي الخراب. خراب البلاد والعباد واستفحال أبجديات الظّلم والقتل والحرب والشرّ على مساحات الحياة.

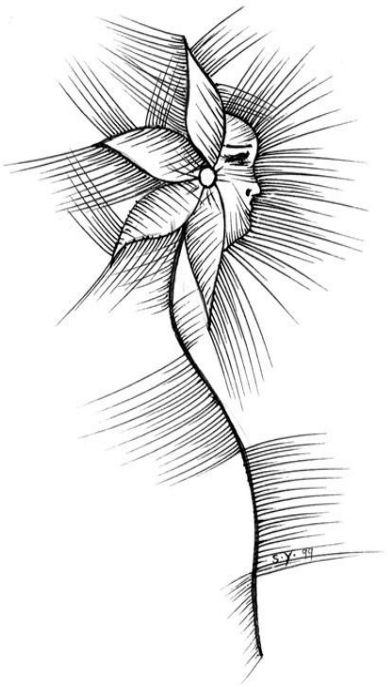

يتضمّن كلّ مقطع من المقاطع الشّعريّة في هذا الدّيوان، دلالاته وآفاقه وصوره وتجلّياته وخصوبته، بلغة شعريّة كثيفة، جانحة نحو حداثة أصيلة، عميقة، لها فرادتها الإبداعيّة الشّفيفة، حيث يلمس القارئ والمتابع أنّ نصوص وقصائد صلاح فائق، منسابة بعفويّة عميقة وباذخة في البناء والصّور الجّانحة أحيانا إلى فضاءات سرياليّة معبّقة بالرّوح الشّرقية تارة والمعجونة بهلالات غربيّة تارة أخرى، شامخاً في عبور تدفّقات وهج النّص بلغةٍ شفيفة مستمدّة من تجربة عريقة، صادقة، وكأنّها منبعثة من صلوات ناسك متعبّد في أوجِ تجلّياته لإنبعاثِ رحيق الشّعر الأصيل.

إنّنا أمام شاعر يتميّز بتدفّقات وارفة في بنائه الشّعري، واختزال رائع في شهقة الإبداع، معتمداً على جموحات خيال منساب نحو أصفى الينابيع، كإشراقةِ حبور الصّباح.

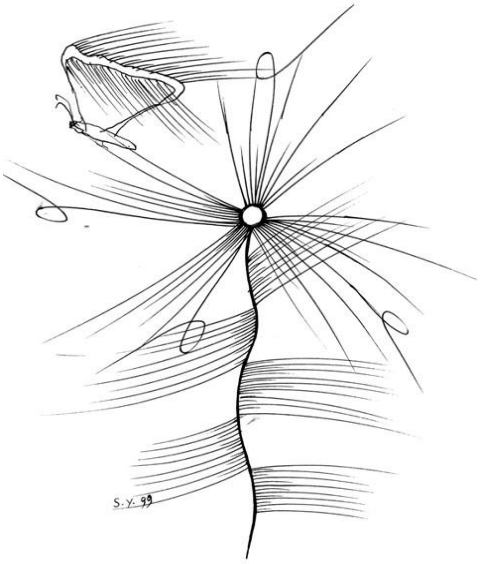

يلاحظ المتابع لفضاءات شعر صلاح فائق أنّ لديه إحتفاء شعريّاً كبيراً بالطّيور والحيوانات الأليفة والمتوحّشة، وكأنّها أليفة في بعض الأحيان، ومتوحّشة أحيانا أخرى، صاغها الشّاعر في عوالم وفضاءات شعره بطريقة مدهشة، يصعب أحياناً على القارئ الدّخول في مغاليقها السّحريّة الباذخة في التّصوير والبناء والإبداع والتّحليق، حتّى أنّنا أحياناً نقرأ نصوص الشّاعر وكأنّه يداعب عبر شعره، هذه المخلوقات بكلّ تنافراتها ووحشيّتها، فتبدو أنيسة ووديعة وغير متوحّشة كما هو معروف عن طبيعتها الوحشيّة، وبهذا المنحى يكون الشّاعر قد أدخل فضاءات جديدة في بناء نصّه الشّعري، وكأنّه يقول لنا بطريقةٍ ما، أنّه من الممكن أن نروّض حتّى الوحوش البرّيّة، لكنّنا لا نستطيع في الكثير من الأحيان أن نروّض الإنسان، إنسان هذا الزّمان الّذي غدا متوحّشاً أكثر من الوحوش الضّارية.

يغوص الشّاعر في التّراث، نابشاً منه أصفى تجلّيات الحرف، محتفياً بالمرأة، بالطّبيعة، بالأصالة، بأروع ما في الحضارة، غير مكترث إلّا لصوت الشّعر المعرّش في أعماقه، واضعاً في الإعتبار أن يفرش وجه الدّنيا بالمحبّة، والحوار والتّسامح والإبداع، وكأنّه رسول المحبّة والأصالة في دنيا مفخّخة بالبكاء. يبدو لنا كيف يستمدّ الشّاعر صفاء شعره من جبين كركوك الشّامخة، من طفولة معتّقة بالبركات، من أصدقاء جماعة كركوك، من أصالة شعب كركوك، من عراقة الشّعوب المنفتحة الّتي عاشت في كركوك، من براري كركوك الرّحبة، وكأنّ كركوك وغرباته الفسيحة في الحياة، كانت البذرة الصّالحة والأمينة في زرْع واستنبات أرقى توهّجات الشّعر، بحثاً عن ذاته التوّاقة إلى نضارة الينابيع الصّافية، مناجياً النّجوم والمحيط ونسيم الصّباح، موجّهاً أنظاره نحو زرقة السّماء، متسائلاً عن أسباب خلخلات أجنحة الإنسان مع أخيه الإنسان، محاولاً أن يبلسم جراحات أخيه الإنسان عبر شعره المنبعث من حفاوة الحياة، من إخضرار خدود الأرض في كركوك، في العراق، في أراضي غرباته الّتي طهّرته من شوائب الحياة، كي يقدّم لنا شعراً من نكهةِ الطّفولة ومن عذوبة الماء الزّلال ومن أصفى ما في وهج الحضارات من تألّقٍ وشموخٍ وإبداع.

ستوكهولم: نيسان (أبريل) 2013

قراءة في الأعمال الشِّعريّة الكاملة- المجلّد الأول

مخيَّلة الشَّاعر أديب كمال الدِّين
معتّقة بحنينِ الحروفِ إلى مهجة الضّياء

قرأت بشغفٍ عميق المجلّد الأول من الأعمال الشِّعريّة الكاملة للشاعر العراقي أديب كمال الدِّين، المقيم في أستراليا، الصَّادر حديثاً عن منشورات ضفاف في بيروت محتوياً على مجاميعه: (نون، أخبار المعنى، جيم، ديوان عربيّ، تفاصيل). وتمتّعتُ بقراءة قصائد عاجّة بعوالم حروفيِّة تشهق ألقاً، منبعثة من مخيّلة معتَّقة بحنين الحروف إلى مهجة الضَّياء، معرَّشة برعشة الرُّوح الجَّانحة نحو أصفى ما في حفاوة الحرف من بهاء:

(أيّتها القاسية
أيّتها الغامضة
حُبّنا بحاجةٍ إلى معجزةٍ ليولد
وإلى معجزتين لينمو
وإلى مائة معجزةٍ لينطفِئ).

(الأعمال الشّعرية الكاملة/ نون، ص 104).

يستخدم الشّاعر خبراته الفنّيّة بالتَّرميزات الغارقة في انصهار شهوة الحرف في شهيق الحياة، سابغاً ذاته المحلِّقة نحو مسارب القصيدة، بكلِّ تجلِّياته، غارفاً من غربته، مماحكاته، شوقه، حنينه، حيِّه، أصدقائه، صديقاته، أسرته وأحلامه الجّامحة في حبر القصائد، فتأتي القصيدة مشحونة بألوان حروفِ الحياة!

(ما أن تراكِ الأبجدية
حتّى تنفض عن ثيابِها
النَّومَ والنّسيانَ واللامبالاة
لتأخذ من كفّكِ شمسَ الحنان
وينبوعَ الصَّحو
وإناءَ الإنتباه
وملعقةَ الحُبّ
وملحَ الطَّمأنينة).

(الأعمال الشِّعرية الكاملة/ نون، ص 23).

تبدو أحلامه مترعة بالقلق ومتشظِّية على مدى رحابةِ خيالٍ مستطيرٍ نحوَ فجرٍ مرصرصٍ بآهاتٍ من كلِّ الجّهات، دامغاً حرفه من مسارب تدفُّقات الحلم العميق، باحثاً وهو في لجَّة الإشتعال عن أحلامٍ شعريّة عميقة، تضاهي ما يراود الكثير من شعراء هذا الزَّمان؟!

(انظري الآن يا حبيبتي
إنّ في الحرفِ لسحراً
يطوّقكِ فلا مهرب عنه
إلّا إلى الضّياع.
أنا أنتظرُ أن تضيعي
وتذوبي
وتمّحي
لأدفن جسدَكِ البضَّ في شمسٍ من الحروف).

(الأعمال الشِّعرية الكاملة/ نون، ص 24).

يجسِّد ما ينبعثُ من حفاوةِ الحروف، بوهجٍ شعري منساب كأنّه يصيغُ حنين العشّاق إلى اللَّيالي القمراء، معتبراً أنَّ حلمه الأبقى هو الشِّعر، هو هذا الاستبطان لحبقِ الشِّعرِ المتدفّق من شهوة جموحاتِ الحرفِ، من أسرارِ الحروف المتلألئة في ذاكرة الشَّاعر، وكأنَّ الحروف هي حبق خياله

السَّيّال، فنراه يستبطنُ أسرار الحروف المسترخية في ذاكرة مسربلة بآهاتِ الأيَّامِ والشُّهورِ والفصول.

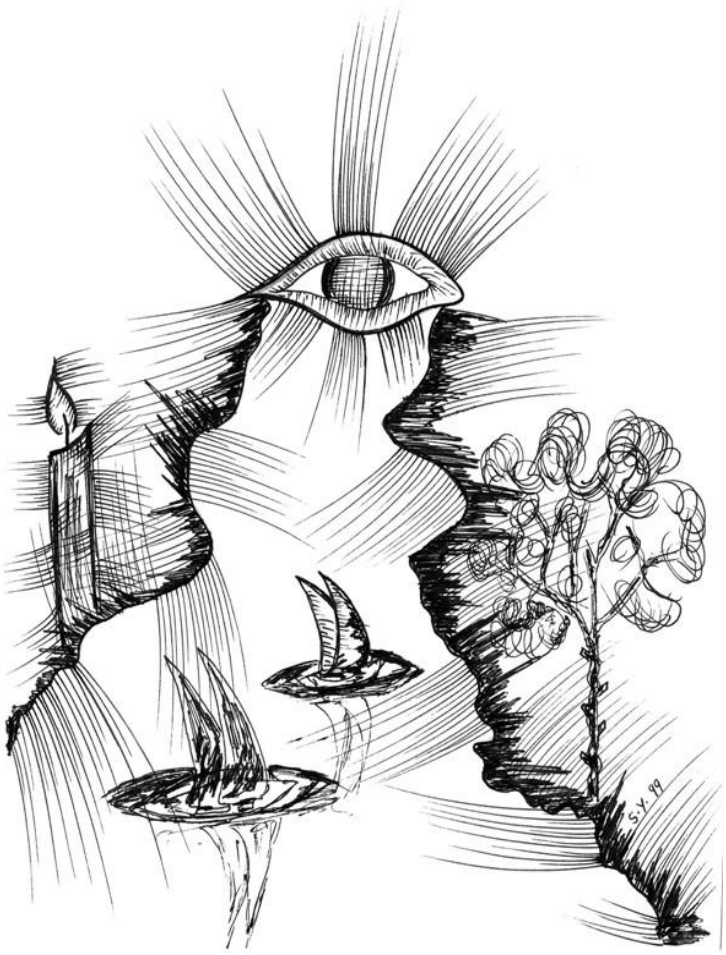

يسطع حرفه كأنّه يتعانق مع ذاته التَّوّاقة إلى عذوبةِ الأنهارِ الصَّافية، ذاته المزدانة بألق الصَّباح، كي يلامس مخياله ندى الرَّبيع في أوج بهاء إشراقة الشَّمس، هارباً من أنين الحروب، ومن غربة مقمَّطة بأحزان ترهقُ كاهلَ الجِّبال، كي يمهرَ وجنةَ الصَّباح بحبور الحرف المتعانق مع حبَّاتِ المطرِ وهي تتهاطلُ من مآقي السَّماء!

(إذا ضاعت النُّونُ منّي ذات يوم
فمَن الَّذي سألتجئ إليه؟
سألتُ الأبجديَّةَ جميعها حرفاً حرفاً
فلم تعطِني جواباً شافياً
إلّا النّقطة باركتْني
وقالتْ: إذا خانت النّون فعليكَ بي
أنا نقطتها
أنا سرّتها
أنا فحواها
أنا ذكراها الضَّائعة).

(الأعمال الشِّعرية الكاملة/ نون، ص 128 و129).

يكتب الشَّاعر أديب كمال الدِّين القصيدة، وكأنّه ينبش أسرار تشكيل الحرف الأوَّل، ويعيد تكويرة الحرف إلى معابد عشتار، وشموخ نخلات العراق الشَّامخاتِ في وجه الزّمن، مجسِّداً صفاء دجلة وهو في حالة عناقٍ عميق مع اهتياج الفرات في أوج إنبعاث ألق القصيدة، محاولاً الولوج في منعرجات حضارة الحرف المستولدة من بلاد الرَّافدين، حضارة الحضارات، فتولدُ القصيدة على إيقاع الحلم المنساب نحو بيادر الرُّوح الغارقة في رفرفات بهجةِ الإبتهال، كأنّه في حالة صوفيّة مسترسلة في ضياء كنوز خفايا القصيدة، تاركاً بصمته متربّعة فوقَ مرامي الرّوح المندلعة من تلألؤات نجوم اللَّيل!

(سأمنحكِ أيّتها النُّون المجنونة بالجّمالِ والانكسار

مجدَ الكلمة،

وسأعلنكِ إمبراطورةً حقيقيّة،

وأتوّجكِ في احتفالٍ سرّيّ عظيم

بتاجِ الحروف

وقلادةِ الكلمات

وطيلسان القصائد

ووسامِ الهيام

وعصا السّحر).

(الأعمال الشِّعرية الكاملة/ نون ، ص 16).

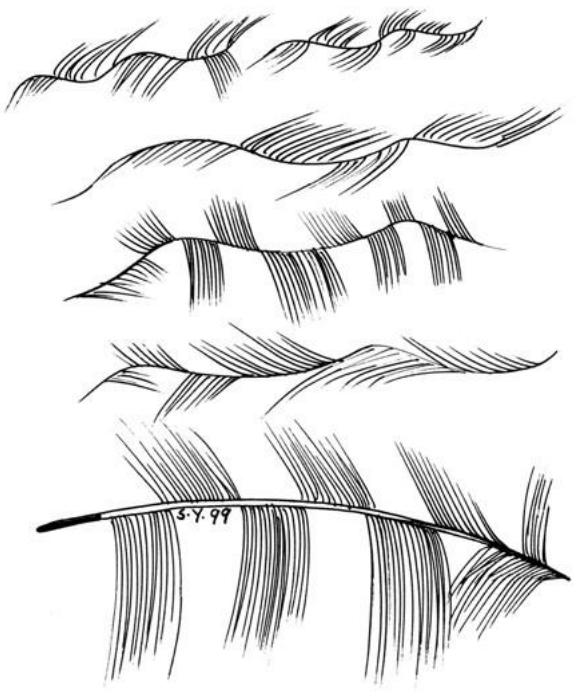

يشعلُ الشَّاعر شموع حروفه كي يضيء القلوب المنكسرة، ما فاتها من ليالٍ مظلمة وظالمة، كي يضيء الرُّوح برضابِ الاِخضرار، كي يزرعَ في أحلامِ النّهار، أغاني الفرح الآتي، متسائلاً هل ثمّة فرح في قادمِ الأيَّام ونحن نزدادُ غوصاً في سراديبَ دكنةِ الحروفِ وإنشطارِ شراهاتِ الإشتعال لخاصرة الأوطان؟!

(ما أن تراكِ الأبجديّة
حتّى تنفض عن ثيابِها
النّومَ والنّسيانَ واللامبالاة
لتأخذ من كفّكِ شمسَ الحنان
وينبوعَ الصّحو
وإناءَ الانتباه
وملعقةَ الحُبّ
وملحَ الطّمأنينة).

(الأعمال الشِّعرية الكاملة/ نون ، ص 23).

يكتب الشّاعر مسارات حروفه بفرادةٍ حميمة، مرتكزاً على هلالات الخيال، ومستوحياً من بسماتِ الطُّفولة مذاق القصيدة، مجسِّداً بإنسابيّة شفيفة تجلِّيات ذاكرة مصهورة بحبر الحنين، راصداً شراهات الشَّفير المفتوح فوق رقاب الوطن، متحدِّياً سيوف الظُّلم والطُّغيان وعنجهيات الحروب الطَّاحشة بفظاظةٍ مميتة فوقَ رموشِ الأطفالِ الغضّة، فارشاً جناحيهِ على شساعةِ بوحِ القصيدة، كأنّه في حالةِ هيجانٍ مفتوح لتصدِّي مرارات الأنين المستفحل فوق أشجار النَّخيل، ووجنة العراق:

(سقطَ الساحرُ من مائدةِ السّحرِ على الأرضْ.
فتمزّق صوتُ الماءِ بكفّيه. بكى، واهتزَّ كما يهتزُّ الطّائر
حين تُمرّر سكين الذّبحِ على الرّقبة.
الأرضُ تكرّرُ لعبتَها. ما كنتُ أكون. الغيمُ يجيءُ ويذهبُ
والفجرُ يطرّزُ حرفَ الدّهرِ فلا معنى أبداً. أختبئُ اليومَ كطفلٍ،
أرنو للفجرِ، أقرّرُ أنْ أبعث كلماتي حتّى يعتدل العالم، يذهب
سيف الظّالمِ في الظّلماتِ. فما أحلى الكلمات! وما أسخفها!
سقطَ السَّاحرُ. كانتْ امرأةُ السَّاقين الفاتنتين تهدهد...
لا معنى لإعادةِ مشهدِ حبٍّ مكرورٍ ملتهبٍ، لا معنى.
المرأةُ واقفةٌ خلف الشبّاك وخلف المكتب، خلف زجاج الباص
وما مِن شيء ينقذها. سقطَ السَّاحرُ من مائدةِ الفعلِ، فعضَّ
يدي، قالَ: سأقتصُّ من الظَّالمِ. هدّدني بعيون الجّمرِ، تقدّم
من دائرةِ السَّيفِ وأطلقَ جمْعَ طيورٍ ملأتْ جوَّ الغرفةِ بالهذيانْ.

أكتشفُ اللّحظة أنّ السَّاحرَ مسحورٌ، أنّ السَّاحر يبكي كالطّفل..

نظرَ السَّاحرُ لي، قالَ: بأنّي الطِّفل.

فتعجّبتُ من القول

ونظرتُ إلى لغةِ الفجرِ فكانتْ سوداءْ.

قامَ السَّاحرُ بالرّقصِ، اختطَّ لنا أرضاً تكفي لكلينا، قالَ: هنا نرقصُ- واختطَّ بجانبها أرضاً أصغر- وهنا سنموت).

(الأعمال الشِّعرية الكاملة/ أخبار المعنى، ص 135).

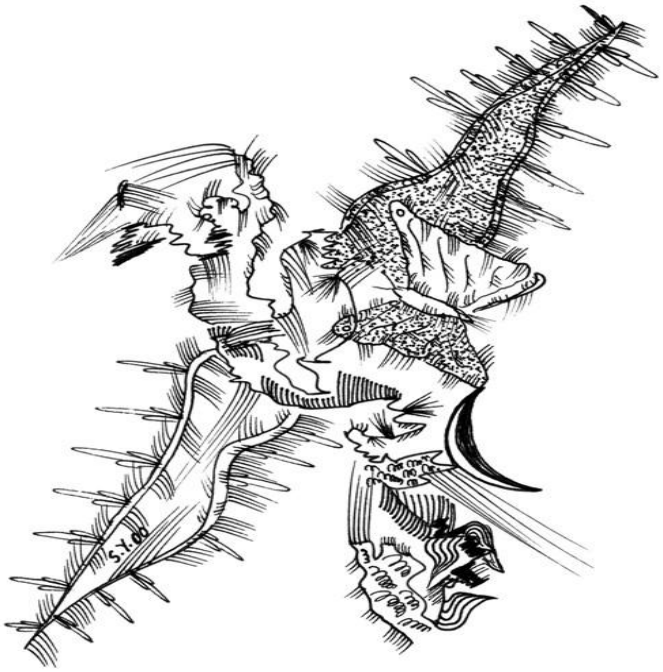

يستولدُ الشَّاعر حروف القصائد على إيقاعِ زخّات المطر، غارفاً حبره من عوالمه المضمَّخة بأسئلةٍ متدفِّقةٍ من أعماقِ الجّراحِ الخفيّة، فتنمو القصيدة عبر ظلال متعانقة مع غربة مكثّفة بمرارات متشظّية على مساحات ألق الرّوح وهي تناجي ضياء النُّجوم، ملتقطاً بهاء حرفه من جرّاء تفاقمِ آهات لظى الإقتتال، معبِّراً بطفوحِ إنسيابيّة دمعته المتناثرة على خدودِ أوطانٍ تاهت عن مساراتِ ضرعِ الحياة، مناجياً رحاب الغيب، أسرار اللَّيل والنّهار، متوقِّفاً عندَ سراديبَ الرّحيل، غير آبهٍ بكلِّ ما يعتريه من غربة، من جراحٍ غائرة في أعماق مرامي الحنين، فارشاً أشواقَ حروفه فوقَ تماوجاتِ انبعاثِ القصيدة، مبلسماً أحلامه الوارفة بالأمل المستنبت بأزاهير معبّقة بحفاوةِ الحياة، كأنّه في رحلة حلميّة بين أسراب العصافير، يسبح في الماء الزُّلال، محلِّقاً في زرقةِ السَّماء، بين طيَّاتِ الغمام، مسترخياً جناحيه المفروشَين فوق ذاكرة طافحة بدموع الأمّهات وآهاتِ الآباء وهم يودّعون أبناءهم نحو واحات الضَّباب، ومرصرصة بأسوارٍ مشبّعة بتشظّياتِ شفير الإنشطار. وجعٌ على مساحاتِ شهوةِ الحنين إلى الأزقّة القديمة، حيثُ ألعاب الطُّفولة تنفرش على رحابة ارتعاشات ابتهالات القصائد!

يغوصُ أديب كمال الدِّين، عميقاً، في صفوةِ ينابيعَ الحروف، لاستكناه جراحه المستفيضة من آهاتِ وطنٍ غارقٍ في التِّيهِ والتَّشظِّي والجِّراح والبكاء على مدى رحابةِ الدُّموع، مناجياً أبجديات الوجدِ المتنامي في صفاءِ روحانيّته المتهاطلة من بؤرة خيالٍ مطلسمٍ في براري جراحِ القصيدة! راسماً عالماً مشحوناً بشهوة حرفٍ مضرّجٍ بنضارة النَّدى!

(مرّتْ سبعٌ مثمرةٌ بالموحشِ من أخبارِ الطَّيرِ وأخبارِ الوحشِ، النّاس. ومرّتْ سبعٌ مثمرةٌ بالطيّبِ من أخبارِ العسلِ الأسْوَد والزّنبقِ والماء. ومرّتْ سبعٌ لاهيةٌ لا تعرفُ بيتاً أو عنواناً أو معنى، وأنا أتجلّى في لغةِ الجَّسدِ الغامضِ. أمحو أمطاراً لم تسقطْ وغيوماً لم تفزعْ وبحيرات من أسباخِ طفولتي المُرّة. أشكو وجعي للسنواتِ، وما مِن سنوات تقدرُ أنْ تفهم هذا الوجع الأزرق. أشكو معناي المقتولَ إلى الكلماتِ الفضّةِ: لا جدوى، الكلماتِ الرّملِ: فلا جدوى، الكلماتِ النَّارِ: فلا جدوى، أخرجُ مفزوعاً. دارتْ دائرةُ السّعفِ العالي في جسدي: والرّيحُ مضتْ. سنواتٌ انقرضتْ: ماذا أفعلُ كي أنجو من حلمٍ يتلبّسُ خاصرتي، يأخذني للمنفى، يدفنني حيّاً، يخرجني، يوقفني قدّام الله وحيداً ويضيّعني كي يلقاني في اللَّيل فيقطع رأسي إذ أعبر جدران الحكمة؟ يهوي الرَّأسُ بنهرِ الطّابوقِ المنهارِ. أصيحُ بجمْعِ النّاسِ: "و...هذا رأسي فانتبهوا"! يبقى الجسدُ المدهوشُ عنيفاً لا يعرفُ للموتِ طريقاً أو معنى).

(الأعمال الشِّعرية الكاملة/ أخبار المعنى، ص 138).

يستبطن الشّاعر عوالمه الباطنيّة، كأنّه في حالةِ حوارٍ مع الذَّات، معبِّراً عن هواجس شعريّة فيها من ألق المغامرة وكشف بواطن الأسرار الشَّيء الكثير، من خلال استنباط أسئلة حافلة بمذاقات الوجود، موغلاً في مغاليقَ صفوة الرّوح الباطنيّة، كأنّه في رحلة استكشاف مسارات انبلاج أحلامه الغافية في مرافئه الجُّوانيّة، كي يرسم هواجسه المنبثقة من أغواره السَّحيقة على وجنةِ الحروف، بإيقاع ابتهال تجلِّيات الرّوح الهائمة فوق براري الذَّاكرة البعيدة، حيث بسمة الأمل ساطعة فوقَ مآقي الطُّفولة، كأنَّها هلالات شموعِ مضيئة فوق قبّة الرُّوح التَّواقة إلى منارات بوحِ القصيدة:

(في نونكِ جلستْ روحي ما بين الحروف
ووسط النِّقاط
تتأمّل
وتتجو
وتعلو
وتمحو
وتتأى).

(الأعمال الشِّعرية الكاملة/ نون، 94).

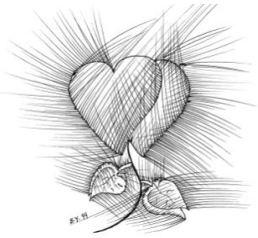

يتميّز أسلوب الشَّاعر المبدع أديب كمال الدِّين، بإيغاله العميق في صهر مغاليق رموزه المتعلّقة بأبعادها الصُّوفيّة المستنيرة، من خلال تجسيد وهج الوجْدِ الصُوفي ضمن فضاءات شعريّة معبَّقة بالتَّراث الأصيل، والإيمان والتَّأمُّل، فنراه يشكِّل رؤاه ضمن تماهيات شعريَّة ضاربة في منعرجات أفكار ساطعة على أسرارِ ودلالاتِ الأساطير، كأنّه في حالةِ تجلٍّ وتواصلٍ مع رؤى منبعثة من إشراقاتِ الأساطير الغابرة ضمن بوحٍ شعريٍّ منساب مع روح المعاصرة، وكلُّ هذا الجُّموح في الوهجِ الإبداعي، ناجمٌ عن خصوبةٍ شعريّة مخضوضرة في مخيالِ شاعرٍ مترهبنٍ لألقِ القصيدة، كأنَّ الشَّاعر مجبول بأسرارِ طين الحروف، وكأنَّه في حالةِ مصالحةٍ مفتوحة مع ذاته المستغرقة في دوحةِ الأحلامِ، فتأتي مرامي القصيدة مقمّطةً بأغصانِ الرّوح العطشى إلى مزاميرَ توّاقة إلى أغصانِ الشِّعرِ الممتدِّ على مدى استبصارِ تدفّقاتِ مآقي الأحلام!

(ووصلتُ إليكِ بدمعي الأسْوَد، حاربتُ الوحش طويلاً بأصابع موتي حتّى حاصرني الفجرُ رمالاً ترقصُ، أخرجني مِن منفاي وألقاني قدّام اللَّيل وحيداً في نهرِ الرِّيحِ. ومِن أجلكِ رأسي كانَ شجاعاً يرفضُ أنْ يؤوي قطّاعَ الطُّرقِ البلهاء وباعةَ ساعاتِ رمادٍ تتطايرُ وسط العميان. وكانَ شجاعاً صنديداً: إذْ كيفَ لرأسٍ مقطوعٍ مُرمى، في نهرِ الرِّيحِ تدلّى، لملاقاةِ الموتِ يقومُ وحيداً؟ كيفَ لرأسٍ مقطوعٍ أنْ يسمع، وسط الحومة، أشجاراً مُثقلةً بطيورٍ رُسِمتْ أسماءُ الحُبّ عليها وطفولاتُ الماء؟ وكيفَ لرأسٍ مقطوعٍ أنْ

يدخل في حلمٍ يصهر أزمنةَ الدُّنيا حتّى يأتيكِ ويكشف غامضَكِ السّرّيّ وعريكِ عريّ أعمى؟ وصلَ الرَّأسُ إليكِ بطيرِ الحاءِ وسحرِ الباء ومعجزةِ الكافِ الكبرى. أمسكَ في شغفٍ نزواتكِ، أربعةً مِن أطيافكِ، سبعاً مِن لهجاتكِ، تاءً مِن لذّتكِ القصوى. قامَ بأمطاركِ حتّى شفيتْ صحراؤك مِن أمراضِ الدُّنيا. قامَ الرَّأسُ إليّ أخيراً، قبَّلَني، صاحَ بأعضائي فتنبّهتُ مِن الموتِ إليكِ، وجدتُكِ عاريةً قربي. رجعَ الرَّأسُ إلى جسدي، قالَ: أنا المعنى. فبكيت).

(الأعمال الشِّعريّة الكاملة/ أخبار المعنى، ص 193 و 194).

أديب كمال الدِّين شاعر من قامة الصّلصال، يفهرس حرفه من وهج الحروف فوق جبين الصَّباح، كي يترجمَ حنين الإنسان إلى جوهر الإنسان المضرَّج بإشراقاتِ الحروف، المغموس بيراعِ الشِّعرِ، وآهات الوطن المكتنز بأهازيجَ القصائد منذ آلاف السِّنين، شاعر مفطور على أريجِ الحروفِ، يتماهى الشِّعر مع بحبوحة حروفه، فينسج من بهجةِ انبهارِ الحروفِ وجْداً شعريَّاً باذخاً في اشتعالات بوح القصيدة!

يتميّز شعره بطاقاتٍ غنَّاءة، يموسق شعره بتوهُّجٍ فريد على مساحاتٍ رحبة من لغةِ التَّمرُّدِ على الأبواب المغلقة، مركّزاً على استنارةِ العقولِ، منجذباً إلى تيجانِ العقلِ الممهورِ بالحكمة، عابراً نحو أقصى ما في حقول الجَّمالِ من دهشةِ ولاداتِ القصائد، كي يكلِّلَ بناءه الشِّعري بأهازيجَ بوحِ الرّوحِ وهو في أوجِ تجلِّيات إنبعاثِ الخيال!

(ينبغي لي أنْ أعقد مؤتمراً
أدعو إليه قلبي وأصابعي وعيوني
وأدعو إليه أساطيري وخرافاتي وظنوني
وأدعو إليه أزمنتي وأباطيلي
ودفوفي وطبولي
وحروفي ونقاطي
لكي أفهم معنى الحاء
وأجلو مرآةَ الباء
وأطلق طائراً يربطُ الحاءَ بالباء،

فيحملني بعيداً بعيداً حيث لا موت ولا حياة
لا شمس ولا قمر
لا حاء ولا باء
لا أنا ولا أنتِ).

(الأعمال الشِّعرية الكاملة/ نون، ص 112).

يهفو الشّاعر إلى طقوسِ العشق وإلى إنبهار حفاوةِ الجِّمال، فتنعكس هذه الطُّقوس المنعشة على مزاميره العشقيّة عبر القصيدة، مُبلسماً جراح الرُّوح بهلالات الفرح، ململماً تراكمِ الآهاتِ كي يبثَّ في تخومها ابتهالات حبق القصيدة، مخفِّفاً من توجّساتِ أنينِ الحياة، عابراً آفاق الحرفِ من منظورِ سياقاتٍ شعريّة شاهقة في مرامي التَّرميز، غارفاً قلمه من روحانيّة أرضٍ بكر، معرّشة بمذاق رؤى ممهورة بالصّفاء المخضَّل بمعراجِ إشراقات التَّصوُّف، كأنّه رفرفات روحٍ مجبولة من شعشعاتِ طينِ الحياة!

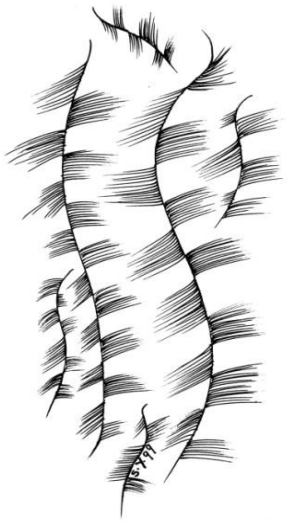

تزدهي قصائد الشّاعر بدلالات وترميزات وتحليقات رحبة، كأنّها رسائل عشقٍ مندلقة من أسرارِ غيمةٍ حبلى بأصفى شهقاتِ المطر. يصيغ حرفه بطريقة غير مطروقة من حيث العبور في مجاهيلَ بوحِ الحرف، فتأتي القصيدة معتّقة بروحانيّة صافية ومصهورة بحكمة مسترسلة في نضارة العقل، وجانحة نحو مخابئ الأسطورة وغارقة في بحبوحة الجَّمال، فنشرب بكلِّ فرحٍ نخبَ التَّجلِّي المنبلج من حفاوةِ الحروفِ الَّتي يستنبط منها عالماً فريداً في مراميه وتماهياته وكأنّه يترجم لنا حالات حلميّة سكرى من تجلّيات بهجة الانتشاء، كما يسلِّطُ منارات حرفه على تيجان الموت كي يضعَ مجسّات رؤاه فوق أجنحة الحياة!

(يا نوني
ها أنتِ كبرتِ وتعبت
وبدأتْ الأحلامُ تركضُ بعيداً عنك.
يا نقطتي وهلالي
لا مستقبل لكِ إلّا مع طفولة الصّعلوك
وجنون الشّاعر
ورؤية الصّوفيّ
ووميض الرّائي).

(الأعمال الشِّعرية الكاملة/ نون، ص 104).

***

يسترسل الشَّاعر في استلهام صياغاته الشِّعرية من حروفه، فيحلّق في فضاءاتٍ غير متوقّعة، نراه يؤنسن حتّى الجّماد، ويبعث في الجَّماداتِ روحاً مفعمة بألقِ الحياة، عبر شغفه الكبير في مرامي القصيدة.

تنسابُ حروفه عبر قصائده كأنّها شيفرات مندلقة من أسرار كواكب غير مرئيّة، تبدو كأحلام سرياليّة منبعثة من شهوة النَّيازك فوق رضاب الأرض.

هل يريد أن يسبر كُنْهَ الحياة وما بعد الحياة عبر هلالات أجْرامه الحروفيّة، مترجماً لنا حروفه بإسقاطات شعريّة، كأنّها أجرام سماويّة هبطَتْ علينا عن طريق أحلامنا الباطنيّة، الَّتي تتواصل مع قوى خفيّة لا تسبر كنهها إلا إشراقات الشِّعر في أرقى تجلِّياتها، ويبدو عبر تدفُّقات هواجسه الشِّعريّة، أنّه في حالة شغف وهيام وتواصل عشقي مع عوالم شعريّة سحريّة، فيها من التَّساؤلات والتّماهيات المدهشة عبر مفارقاته الشِّعريّة الكثير من المسارات الَّتي لا تخطر على بال.

(كم مِن جهدٍ يلزمني كي أمسكَ أياماً راحلةً
كقطارٍ مُسرع
أو مثل ظنون تتمطّى كغطيطِ السكّير؟
كم مِن جهدٍ يلزمني لأغنّي
للقبّعةِ المرميّةِ في الرِّيح؟
كم مِن جهدٍ يلزمني كي أذكرَ شيئاً
مرّ هنا أحرقَ كلَّ الأشجارِ وبخّرَ منها الفجرَ وأعطى
لربيعِ الحبّ نشيدَ السكّينْ؟

كي أنسى أنهاراً مرّتْ
وطيوراً قالتْ في أذني شيئاً،
أثداءً باركت النَّوم؟
كم مِن جهدٍ يلزمني كي أبكي أو أضحك؟
كي أمسكَ كأساً مِن فرحٍ محمومْ،
كي أحرقَ أقنعتي في ليلٍ صافٍ كالثَّلج،
أخطو في فجرٍ أسْوَد مجنون؟).

(الأعمال الشِّعرية الكاملة/ ديوان عربيّ، ص 264 و265).

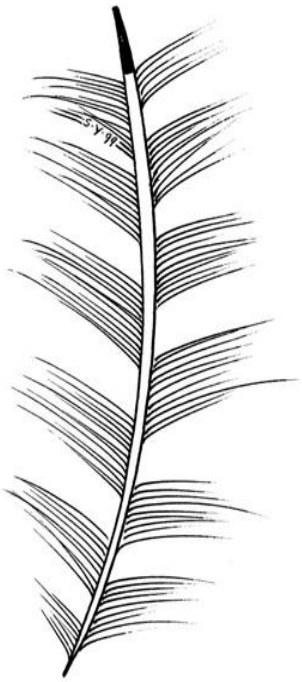

يكتب الشّاعر نصّه الشِّعري، برغبة عشقيّة لا تقاوم، إنّه مصهور في حليبِ الشِّعرِ، ومعجون برحيقِ الحلمِ المنساب من ظلال الحروف وهي تنهال في بؤرة الخيال، فيصيغ منها ألقه المستثار من مساراتٍ متعدّدة، حتَّى ليكاد يصعب على القارئ تلمُّس تشكيلات خضاب القصيدة، فهي أشبه ما تكون في الكثير من براريها لوحات سرياليّة غارقة من بحبوحة الحلم، وكأنّها تماوجات هبوب نسيم ندي في صباحٍ ربيعي، مسربل بحفاوة النَّفل وأريجِ الزَّنبق البرّي.

توقّفت عند لغة الشَّاعر الطَّيّعة لهلالات بوح القصيدة من خلال ولوجه عميقاً في استنطاق شهيق الحروف، مروِّضاً رؤاه بتقنيات مدهشة في بناء حرفه المكلَّل بأسرارِ حنين الرُّوح إلى صحارى براري الحلم، فيدهشك بهذه القدرة على صياغة عوالمه دون أن يقع في فخاخ التِّكرار، بل نراه متجَدِّد

الصُّور والأفكار، فنتوه ببهجة ومتعة غامرة في متاهات فضاءاته المسربلة بدهشة غير متوقّعة، بلغةٍ رشيقة، عفويّة، غير مطلسمة، عميقة الغور رغم بساطة التَّعبير، فنسير معه نحو الشَّواطئ العذبة وكأنّنا في رحلة استكشاف تجلِّيات أحلام بوح الرُّوح:

(في حلمي، البارحة، رأيتُ قلبي

وقد أُصيبَ بسهمٍ.

ولمّا استيقظتُ وجدتُ فراشي

وقد تحوّلَ إلى قطعةِ دم

وقلبي قد تحوّلَ إلى قطعةِ حلم).

(الأعمال الشِّعرية الكاملة/ نون، ص 108).

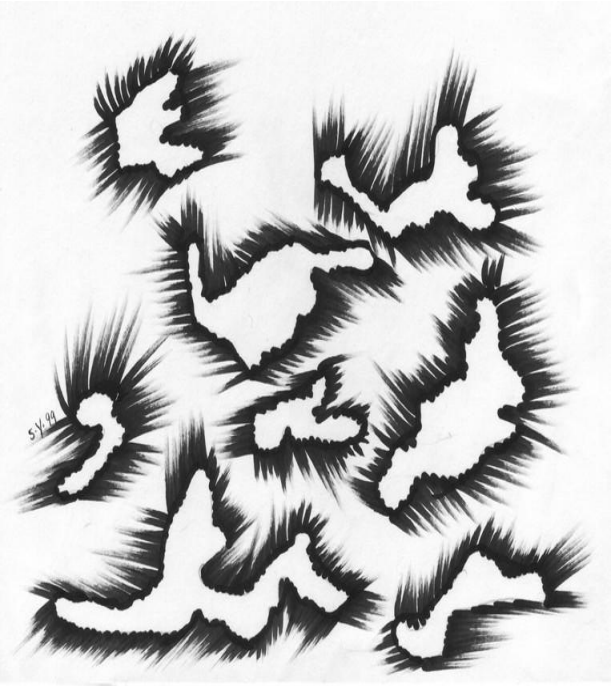

يفكُّ الشَّاعر ما يمور في مسارات الحروف، من هواجس وطلاسم ومعاني جمّة، يبني أبراج القصيدة بتأمُّلٍ عميق، شهقةً شهقة، كأنّه تمرَّس طويلاً في تماهيه مع أسرارِ الحرف إلى أن إستطاع أن يستدرج تشعُّبات مرامي الحروف إلى حقولِ التَّرويضِ، فيبني لآلئه بشغفٍ كبير وبإيقاعاتٍ تجريديّة، سرياليّة حالمة، فتغدو القصيدة كرفرفات أسراب الطُّيور وهي تحلِّق فوقَ أمواجِ البحارِ تارةً وفوقَ بهاءِ الغيومِ تارةً أخرى، فتأتي قصائده مغموسة ومُبلسمة بحبرِ الحياة، وهو أشبه ما يكون شجرة مبرعمة فوق شموخ الجِّبال، يريد أن يظلِّل الطُّيور المغرِّدة تحتَ ظلالِ أغصانه الوارفة بأبهى ما في الحروفِ من مرامي الاخضرار.

ستوكهولم كانون الأوَّل (ديسمبر) 2014

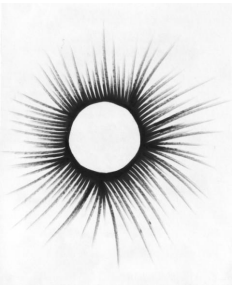

قراءة تحليليّة لرواية
عراقي في باريس، لصموئيل شمعون

عراقي في باريس، عراقي ضاربٌ في العراقة والأصالة والإبداع، متشرّبٌ من مياه الحبّانية حيث عذابات وانكسارات وطموح الطُّفولة، طفولة مترجرجة بالجِّراحِ الثَّخينة وشغفٌ عميق للعمل منذ أن تبرعمَ هذا الطّفل العراقي في أزقّة الحبّانية، مسقط الرّأس، ولعٌ عميق للسينما يزرعه قرياقوس في عوالم هذا البائع المتجوّل/ الطّفل.

يفرش الرّوائي المبدع صموئيل شمعون عوالم طفولته وصباه وشبابه بانسيابية نديّة وجرأة شفيفة نادرة، تلامس العوالم الخفيّة لجراحِ الرّوح، بأسلوبٍ عفويّ إنساني روائي سردي نقدي حالم ساخر ومرتكز على حميميات الذَّاكرة منذ أن نقشَتْ على خمائلها نكهةَ المطرِ الأوّل، كاشفاً بطريقةٍ طازجة الانشراخات العميقة في محطّات الطّفولة والصّبا والشَّباب، يعرّيها بجرأةٍ نادرة، آخذاً من كلِّ مرحلة من هذه المراحل الوعاء النَّقي لبناء عمل روائي متعانق مع بهجة السِّيرة بكلِّ تلاوينها ومراراتها وآهاتها ونزوعها العميق إلى عوالم السِّينما والصَّداقة والأسرة والمكان والإنسان والحياة!

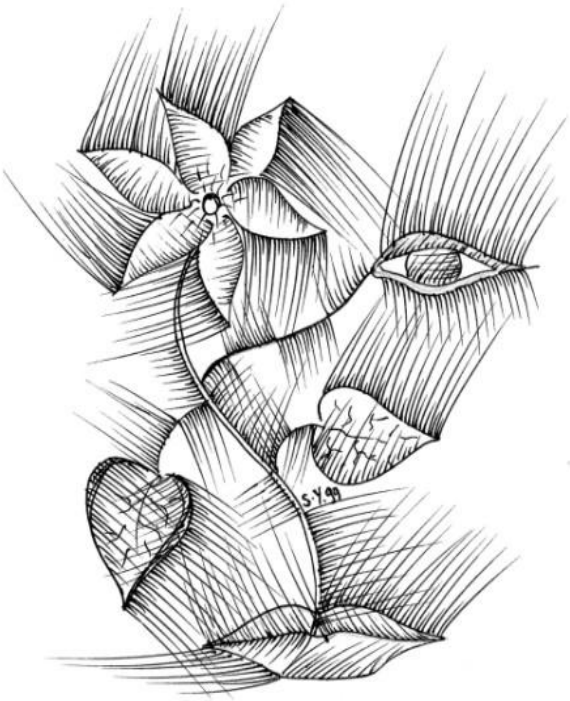

يفتح صموئيل شمعون عينيه على أرضٍ طينيّة خصبة، كانت يوماً مهد الحضارات، وإذ به يتلقّفها أرض المرارات، مرارات تحاصره من كلِّ جانب، معفّرة بالدّم والفقر المدقع، متشرشرة بحروب فاقعه، كريهة، حروبٌ بلا نهاية تتزاحم على جماجم أعرق حضارة على وجه الدُّنيا.

ترعرعَ على هذه الأرض المفخّخة ببراكين الدَّم، هذا الـ "عراقي في باريس"، فلم يجد أجدى من هذه العوالم الفسيحة المكتنزة بالجِّراح الغائرة كي يفرشها بكلِّ تلاوينها أمام عرش الشَّرق المهلهل، وأمام الغرب النَّاهض، المسترخي بثعلبيّة غير مرئيّة فوق صياغة عذابات الكثير من فقراء الشَّرق وفقراء العالم!

يسخر شمعون عبر قلمه المنساب مثل مياه دجلة، من مراراته وعذاباته وتشرُّدهِ ويدوّن همّه وغمّه بجرأةٍ صافية قلّما تجد مثيلاً لها في عالم الرِّوائيين العرب ممّن كتبوا في هذا السِّياق ذات الطَّابع السِّيروي، محوّلاً الهموم المتراكمة على صدره الغضِّ إلى نصٍّ روائي يبهج القلب، وكأنّه يقدِّم لنا وصفة سحرية عبر الكلمة تشفي هذه الجِّراح الثّخينة، حتّى أنَّ القارئ يلمس وكأنّ هدف الرِّوائي لبَلْسمةِ جراحه كان مرهوناً على الكلمة، على النَّصّ، على تراكمات الهموم كي يصنع منها إنتصاراته الإبداعيّة، فلا نجده محبطاً ولا متململاً، يستقبل التَّشرُّد والجُّوع والعراء كأنّه كان يكتب نصّه الرِّوائي عبر منعطفات عمره المسربلة بالإنكسارات.

ينجح صموئيل شمعون في أسلوبه العفوي، مبتعداً عن الجُّملة الفضفاضة الرَّصينة الجَّزيلة القويّة، مركّزاً على حوار متعانق مع كلِّ شخصيّة من شخصيات روايته، حوار وسرد وبناء مدروس بعناية بديعة، لهذا جاء النصّ كمرآة صادقة تعكس ما كان يراه ويحسّه ويعيشه فترجم هذه الأحاسيس بمصداقيّة روائيّة رائدة، تحلّق عالياً، محقّقاً المتعة والفكاهة والسّخرية والجدّيّة والعفويّة في بناء نصٍّ متماسك يقودكَ إلى متاهاته الَّتي عاش في رحابها متشرِّداً تشرّداً لا يخلو من نكهة طيبة وبهيجة رغم عذابات التَّشرُّد، لأنَّ صموئيل بصبره الأيّوبي استطاع أن يحوّل انشراخات محطَّات عمره إلى فيلم سينمائي عبر طريقة استقباله للحياة بكل قساوتها وتمكّن أن يسخرَ منها بنجاحٍ مأمول، متحايلاً على شظف العيش ببناء حلم وأمل ربَّما يتحقَّق وربَّما لا يتحقَّق أبداً، لكنَّ الَّذي تحقَّق هو بناء هذه العوالم الألمية عبر عمل روائي يحلّق في فسحة عذبة أقل ما نقول عنها أنها فسحة دافئة رغم النَّوم الَّذي كان في محطَّات القطَّارات وعند أصدقاء طريق ومصادفة وغربة وغرابة لا تخطر على بال، لكن صموئيل يجرّ كلّ الغرابات والغربات نحوه مبتسماً لهدير الرِّيح والأقدار العاصفة غير آبه إلَّا بكأس من النّبيذِ وفسحة أمل على ضوء شوارع باريس كي يدلق نصّه على وجنةِ الحياة، لأنّه منبعث من أنينِ الحياة.

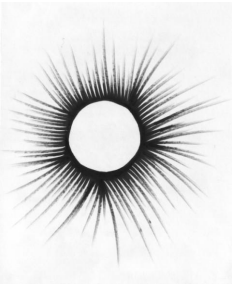

يزرعُ صموئيل شوارعَ باريس بتساؤلات لا حصر لها، يسيرُ بهمّةٍ لا تلين جيئة وذهاباً حتَّى يبزغ الفجر أو حتّى يفتح مقهى ما أبوابه للزائرين فيعبر المقهى وكأنّه آتٍ محمّلاً من ثمارِ معركةٍ إنتصر فيها على أنين الغربة والصَّعلكة، غربة ذات أنياب شرسة لكنّها لا تخيف صموئيل بل تزيده تشبّثاً بحلمه الكبير بكتابة سيناريو سينمائي عن والده الأصم والأبكم، هذا الوالد الذّي أحبّه صموئيل حبّاً عميقاً، من خلال تواصله الجَّميل مع عوالمه عن طريق الإشارات، وأرجح الظَّنّ أنَّ الّذي خلق في أعماقِ صموئيل شهوة الإبداع والبحث وقدرة التَّحمّل والتَّسكُّع هو والده، فقد منحه قدرة خارقة على تحمّل مرارات الحياة، فربّما تساءل صموئيل في قرارة نفسه مراراً، أنّه بألف خير طالما يرى ويسمع ويحكي ويبتسم ويرتشف نبيذه المسكّر بلذّة فائقة، مقارنةً بوالده الأطرش والأبكم، لهذا نراه يتواصل مع والده أكثر ممَّا كان يتواصل مع والدته وبقية أسرته، من خلال لغة الاشارات الَّتي اخترعاها وكم كان حوارهما عبر الإشارات حميماً وساخراً ورشيقاً وإنسانيَّاً، متعلّقاً به تعلّقاً رائعاً، ووفاءاً من صموئيل أطلق على موقعه الرَّاقي اسم كيكا، وكيكا كان لقباً يكنّى به والد صموئيل إشارة إلى أنه أطرش وأبكم، إلا أنَّ صموئيل لا يكترث إلا للمحبّة، محبّة والده ومحبّة الحياة كلّها رغم مرارتها.

يعبر صموئيل اليابسة والبحر بدون مجاذيف لأنّه يعتمد على المصادفات تارةً وعلى مغامرات تصلح أن تكون مواضيع لأفلام سينمائيّة، ويلمس القارئ أنَّ رواية "عراقي في باريس" هي عشرات القصص وأكثر من رواية، إنّها رواية الرّوايات ..

إنَّ أكثر ما لفت إنتباهي عبر متون الرّواية كلّها، أن صموئيل لم يتوقّف عند جنون الحرب وويلاتها ولا عند السِّياسة والسِّياسيين الَّذين زجّوا وطنه في حروبٍ مفتوحة على قبّة السَّماء إلى أجلٍ غير مسمَّى، ومع كلّ هذا الغليان الكوني والمحلّي على العراق، فإنّ صموئيل لم يتوقَّف عند هذه المحطّات كي لا تبرقع تشرُّدَه الجَّميل، وكي لا تخدش اِيقاعات شخيره وهو مسترخٍ في محطّات القطار بعيداً عن ضجيج الحرب وويلاتها الَّتي لا ترحم حتَّى أعماق الحلم، لهذا فقد شطب شمعون غطرسة الحرب وجنون ساسةِ الحرب من شهقته الرِّوائيّة وكأنّه يقول أنتِ يا حرب وأنتم يا ساسة لا وقت لديَّ للحديث عنكم وعليكم، إنَّ كأساً من النّبيذ المعتّق بعد تشرُّدٍ طويل أفضل من رحى حروبكم المغبرَّة بترهَّاتِ الحياة!

صموئيل شمعون، روائي من نكهةِ الفرح وساخر سخرية جامحة مكتنزة بعفويّة الأطفال الكبار، يحوّل بدهاءٍ راقٍ كلّ هذه المصائب إلى بسمة طفل في صباح باكر، ولا يفوته أن يسخر أحياناً حتّى من ذاته ومن محيطه ومن الدُّنيا برمَّتها فلا أهداف عملاقة لديه، ويرى أنَّ الَّذين لديهم أهداف عملاقة، ما هي أكثر من أبراج طينيّة هشّة، تقتلعها الرّيح وهي أشبه ما تكون أبراج من الرَّماد والتّبن المتبقّي من طعام الأحصنة الَّتي يمتطيها في أحلامه في اللَّيالي القمراء بعيداً عن مادّيات وشرور العالم، لأنّه يرى أن جنون الإنسان منبعث من شراهة الإنسان ولهاثه خلف مادّيات الحياة، خلفَ قشور الحياة، فلا يهمّه شيئاً، حتّى ولو فشل في تنفيذ حلمه، لأنَّ صموئيل روائي بارع من خلال تصعلكه وتشرُّده في محراب الحياة، يستقبل التَّشرّد بطريقة طريّة وكأنّه مندلق من صدرِ نيزك للقيام بهذا الدَّور في سيناريو الحياة، بحثاً عن تحقيق سيناريو فيلم سينمائي يكون بطله روبيرت دونيرو.

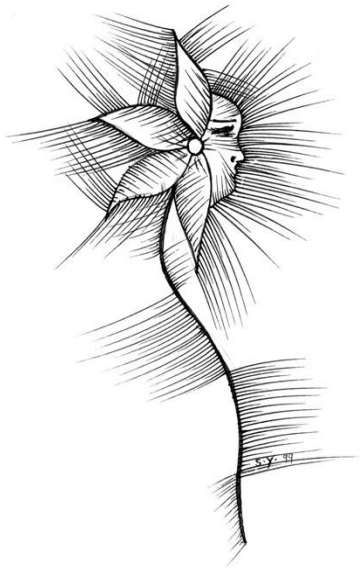

يمتلك الرِّوائي خصائل إنسانيّة راقية، فلا يملك ضغينة في قلبه، يدافع عن نفسه وعن أصدقائه بكلّ شهامة، ويدوّن نصّه وكأنّه يعيش لحظة التَّدوين والكتابة، فلا يميّز القارئ فيما إذا يقرأ نصّاً روائيّاً أم أنّه يعايش المتشرّد تشرُّده الحقيقي، فلديه قدرة كبيرة على نقل تصعلكه إلى بياض الورق بدون أيَّة تحفُّظات وتزويقات، فهو أمين وصادق في ترجمة تجربته بكلِّ تلاوينها ومراراتها، حتّى أنّكَ تشعر وأنتَ تقرأ النَّصّ، أنَّه يأخذ أشدّ المواقف قساوةً بنوع من الدُّعابة والطَّرافة وكأنَّ ما حصل له لا يؤلمه أو يعرف كيف يتجاوزه بصبرٍ أيّوبيّ، مركّزاً على أقرب حانة كي يخلخل كلّ ما جار عليه الزَّمن بكأسٍ من النَّبيذ المسكّر.

توقّفتُ عند صداقات صموئيل شمعون خلال النَّصّ الرِّوائي مع عوالمِ النِّساء، وإذ به يبني علاقات رومانسيّة مع صديقة ما عابرة أو يعرف أنّها كانت ذو تجربة مع فلان ومع هذا يعمّق علاقته بهذه أو تلكَ، وتبدو لي وكأنَّ غرامياته كانت أشبه ما تكون بحلول مؤقّته لتشرُّدِه وطموحاته الغراميّة بسيطة ومتواضعة مقارنةً بصولاته وجولاته في الحانات، فكان على ما يبدو يقارن بين التَّسكّع والنّوم على أرصفة محطَّات القطارات وصداقة أنثى تحضنه في فراشها الدَّافئ، أفضل على الأقل من تشرُّدِهِ، لكنّه عندما كان يجد نفسه في الشَّارع، فلا تراه يندم على ما فاته من نومٍ دافئ في سرير ناعم وحضن طريّ، فكان يرمي ثلاث مرات ثلاث حجرات خلف الأنثى الَّتي تطرده من مخدعها، لكنّه سرعان ما كان يسامحها لو طلبت منه العودة، فيعود لا لأنّه بحاجة إليها بل لأنّه طيّب القلب من جهة ويحنُّ إلى

سقفها وأحضانها الدَّافئة من جهة أخرى، وكان يخيّل إليّ قبل قراءتي للنصّ، أنَّني سأصادف عالماً عشقيَّاً من عوالم صموئيل، أشبه ما يكون بزير النّساء، خاصَّة أنَّ الرِّواية تحمل عنوان: عراقي في باريس، فتساءلت، ماذا ممكن أن يقدِّم لنا هذا العراقي المتسكِّع في باريس، لعوالم نساء باريس، غير شبقٍ مفتوح على وجنة الرّيح، خاصةً أنّه معروف بشغفه في عوالم الحانات وكؤوس النَّبيذ؟!

إندهشت عندما وجدت هذا الآشوري التَّائه في سماء باريس، صعلوكاً طيّباً، بسيطاً، عفوياً، أميناً، صادقاً مع مَنْ يعاشر، ولا يغدر بمن تأتمن له على بيتها، مع أنّه كان يجمح أحياناً بأن يستخدم كلّ الطُّرق لاستمالة اِهتمام الأنثى مثلما حصل مع ساعية البريد المؤقّتة، فقد اخترع لها الأقاصيص وعوالم جامحة كي يستميل اِهتمامها ونجح في أسلوبه وحقَّق مآربه وتمكّن من الحصول عليها لفترة من الزَّمن، لكنّها سرعان ما اكتشفت أهدافه وأسلوبه، فتركته على غير عودة!

هنا أودّ الوقوف إلى أنّ الرِّوائي يزجّكَ في عالم أشبه ما يكون بالخيالي حتَّى في قمّة عوالمه الواقعيّة، والغريب بالأمر أنّه لم ينحُ نفس المنحى مع نساء أخريات، وفعلاً أدهشني عدم تركيزه على أنثى بطريقة أكثر حذاقة ودهاءً كي يقطع الطَّريق عن عالم التَّسكّع والتَّشرُّد، وكي يتمكَّن على الأقل من كتابة سيناريو فيلمه بعيداً عن حياة التَّشرُّد في أزقّة باريس وشوارعها الَّتي ألفته كأنّه غدا جزءاً منها. في هذا المنحى يبدو لي أنَّ صموئيل، ذو الطَّبيعة الشَّرقيّة، البدويّة، الرِّيفيّة، العفويّة، لم يتمكَّن في المرحلة الأولى أن يحقِّق الإنسجام والتَّوازن مع أنثى كي يستقرَّ ولو بشكل مؤقَّت معها، كما يفعل الكثير من مهاجريّ شمال أفريقيا، مع أنّ أغلب أصدقائه في دنيا الغربة كانوا من شمال أفريقيا، لكنّه يبدو أنّه اِعتاد على التَّشرُّد، ولديه طاقة أيوبيّة على مواجهة حياة الصَّعلكة، لكنّه مع كلّ هذا ظلّ نقيَّاً من الدّاخل، لم ينحرف إلى عوالم الضّياع فقد كان يقظاً في تشرُّده وتصعلكه يعرف ماذا يريد، تجده يفرش أوراقه وكاربينتره/ الآلة الكاتبة ويكتب سيناريو فيلمه على إيقاع تأوُّهات الوصالات العشقية، غير آبه لصديقة صديقه وهي تخرج من مخدعها شبه عارية نحو الحمّام، ثمَّ تطوّر بها الأمر إلى أن تخرج عارية، لأنَّها اعتبرته غائصاً في العزف على آلته ينقش السِّيناريو ولا يهمّه مرورها العاري، جلّ تركيزه على الكتابة، لكنّه كان يصاب بالإحراج عندما كانت تتقدّم نحوه وتسأله عن أمرٍ ما فيصبح وجهاً لوجه لمثلث العشق، حيث دهشة الشَّرق تستيقظ بهمّة غجريّة جامحة، لكنّه مع هذا كان يأخذ الأمر بروح رياضيّة عالية! ولا يفوته أن يلوذ بعيداً عندما يرى إندلاع المشاكل مع أصحاب البيوت الَّتي يرتادها فيترك البيت حاملاً حقيبته

وأوراقه بحثاً عن رصيفٍ آمن، بعيداً عن مشاكل أصحاب البيت، وتفادياً من نشوبِ مشاكلٍ بسببِه.

يكتب صموئيل شمعون، روايته من لبِّ الحياة، يريد أن يردَّ على طغاة بلاده الَّذين جرّوا وما زالوا يجرّون البلاد إلى ويلات لا حدود لها، معبّراً عن هذا الأمر دون أن يكتب كلمة واحدة عن هؤلاء، لكنّه قال كلمته من خلال تشرُّده في دنيا الشَّرق والغرب، فقد استقبلته دمشق على أنّه جاسوس اسرائيلي، لمجرد اسمه صموئيل شمعون، اسم يهودي، لكنَّ المحقِّقين هناك نسوا أنَ اِسمه آشوري وسرياني قبل أن يكون يهوديَّاً، ونسوا أن بلاد الرَّافدين، بلاد الحضارات بُنيت على أكتاف الآشوريين والآراميين والسُّومريين والبابليين والكلدانيين، وهم من بنى حدائق بابل المعلّقة، إحدى عجائب الدّنيا، فيأتي واحد من أحفاد هؤلاء يحمل أسماء أجداده فتصبح هذه الأسماء وبالاً عليه!

أنّه لمن الغرابة أن تتعامل دولة، نظام، سياسة ما مع كائن حيّ يعبر حدودها بشكل شرعي لمجرد التّشابه بالاسم بهذا الشَّكل المريع، مسألة في غاية الأهمية والخطورة والجّفاء، وما حصل في دمشق حصل في بيروت الشَّرقيّة، فقد كانت رصاصة جندي سياسي أهوج على وشك أن تخترق رأسه، وبقدرة قادر استطاع صموئيل أن يقنع هذا السِّياسي الَّذي (سيحرِّر) العالم برؤاه الطَّائشة، حيث تذكّر وسرد للجندي أسماء الكثير من الممثِّلين والممثِّلات والأفلام وهكذا تمكّن أن يفلت من جحيم العبور في عواصم العروبة والإباء، متوجّهاً إلى الأردن وهناك يتشرشح بالتَّمام والكمال نتيجة العمل مع شخص تبيّن أنّه معارض للنظام هناك وبقدرة قادر يفلت مرة أخرى من جحيم السّجون، عائداً إلى دمشق فبيروت ويعمل فترة من الزَّمن مع الإذاعة في منظَّمة التّحرير ويشرف على نشرة تصبح مرجعاً للأخبار في ذلك الوقت، مع أنّه لا يستهويه العمل السِّياسي، لكنّه كان بأمس الحاجة للعمل من أجل لقمة العيش ثمَّ التَّخطيط للرحيل إلى أميريكا كي ينجز مشروعه السِّينمائي، فيعمل بشكل دؤوب ثمَّ نتيجة للظروف والمتغيرات السِّياسيّة يفرّ من بيروت متوجّهاً إلى قبرص وتونس، وينتهي به الرِّحال في باريس، مدينة النّور، وإذ بهذا النّور يسطع عليه عبر تشرُّده في الأزقة، ضارباً صحبة قويّة مع أزقّة وشوارع باريس، إلى أن غدَت شوارع باريس كأنّها صديقة حميمة لصموئيل لا يفارقها حتَّى في ساعات النَّوم العميق، آخذاً من أرصفتها مخدعاً مريحاً للنوم!

رواية صموئيل شمعون، عراقي في باريس، هي كشف المستور عن الكثير من عورات الشَّرق، كشف حالة المثقَّف العربي، هي تعرية لحالة المواطن الشَّرقي، المتشرّد بامتياز في عقر داره، هي رسالة واضحة، إلا أنَّ لكلٍّ من المثقَّف الطَّموح والمواطن العادي، نصيبه من عالم التشرُّد والتَّسكُّع والضّياع، وللدول الَّتي انبثق منها هذا المواطن أو ذاك المثقَّف نصيب كبير في تشكيل هذا التَّشرُّد بطريقةٍ أو بأخرى، ناهيك عن أنَّ هذا المواطن نفسه لو ظلّ في وطنه لكان مغترباً ومتشرِّداً أكثر وهو في مسقط رأسه، وقد وجدنا كيف تمَّ تجريف بيت صموئيل شمعون وهو طفل، من قبل أزلام نظام الدَّولة الجَّارفة، حامي البوَّابة الشَّرقية، فتتشرّدُ الأسرة في ليلة وضحاها مع أب أطرش وأصمّ وأولاده الصِّغار يلتحفون العراء، أليست أزقّة باريس ومحطّات القطار أرحم وأجمل وأبهى من تشرُّد صموئيل الطّفل في حيِّه وبلده وشارعه وزقاقه ومسقط رأسه؟!

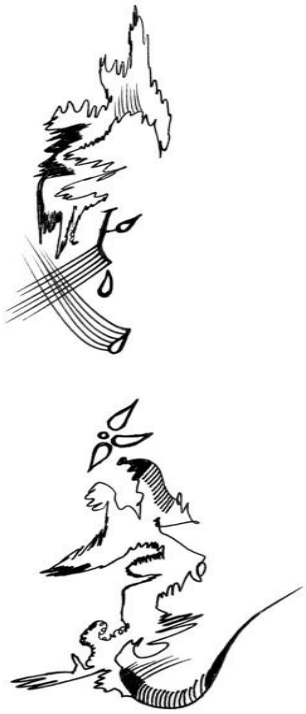

أسئلة عديدة ممكن أن نطرحها في سياق قراءتنا لرواية: عراقي في باريس، لغة عفويّة، بسيطة، طريّة، مشبّعة بالواقعيّة. خالية من التكّلف، وأسلوب رشيق، يقود القارئ بسلاسة إلى الشَّواطئ الآمنة، حيث الهدوء والأمان رغم التَّسكُّع والتَّشرّد تحت أضواء المصابيح على مساحات اللَّيل والنّهار، لماذا شوارعنا تهرب منّا أو نهرب منها، لماذا تجتاحنا الحروب، نحن عشّاق الأمن والأمان والسَّلام، لماذا تضيق بنا الدُّنيا، ولا نجد مسنداً مريحاً لرؤوسنا، فننام في مترو الأنفاق آمنين غير قلقين أن يُهَدَّم علينا النَّفق في عتم اللَّيل، غير قلقين حتّى ولو نمنا في العراء؟!

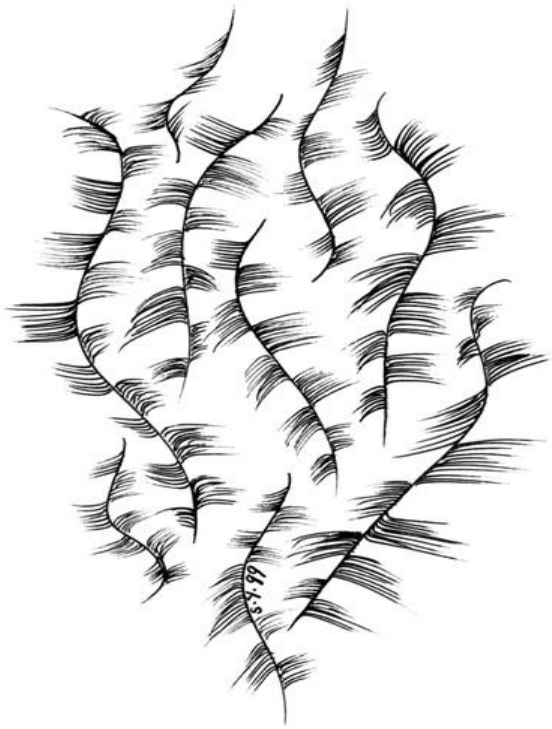

رواية "عراقي في باريس" ردٌّ مريع على طغاةِ الشّرق، تتضمَّنُ تساؤلاً كبيراً يطرحه علينا صموئيل شمعون: ما ذنبي لو حملْتُ اسماً يدعى صموئيل شمعون، فيقتلعون ويجرفون بيتي وتستقبلني العواصم العربية العتيدة بالزَّنازين المعتمة والإهانات المتاخمة لخشخشات القبور، ثمَّ أهرب إلى عالم التَّسكُّع والتَّشرّد في شوارع باريس لمجرّد أنّني أحمل هذا الإسم ولدي حلم وطُموح أن أكتب سيناريو فيلم سينمائي عن والدي الفرّان الأطرش الأصم؟!

عراقي في باريس، رواية في منتهى العراقةِ والحداثةِ والإبداع!

الفهرس

إصدارات الكاتب 3
الإهداء: 5
الأديب الرِّوائي سليم بركات لغةٌ معجونة برحيقِ الحياة 7
ديوان صلاح فائق دببة في مأتم تأمُّل شعري ورؤى حلميّة 21
مخيَّلة الشَّاعر أديب كمال الدِّين معتّقة بحنينِ الحروفِ إلى مهجة الضّياء 28
قراءة تحليليّة لرواية عراقي في باريس، لصموئيل شمعون 50

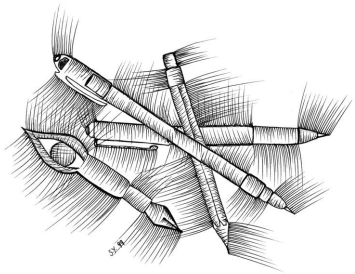

S.Y.99